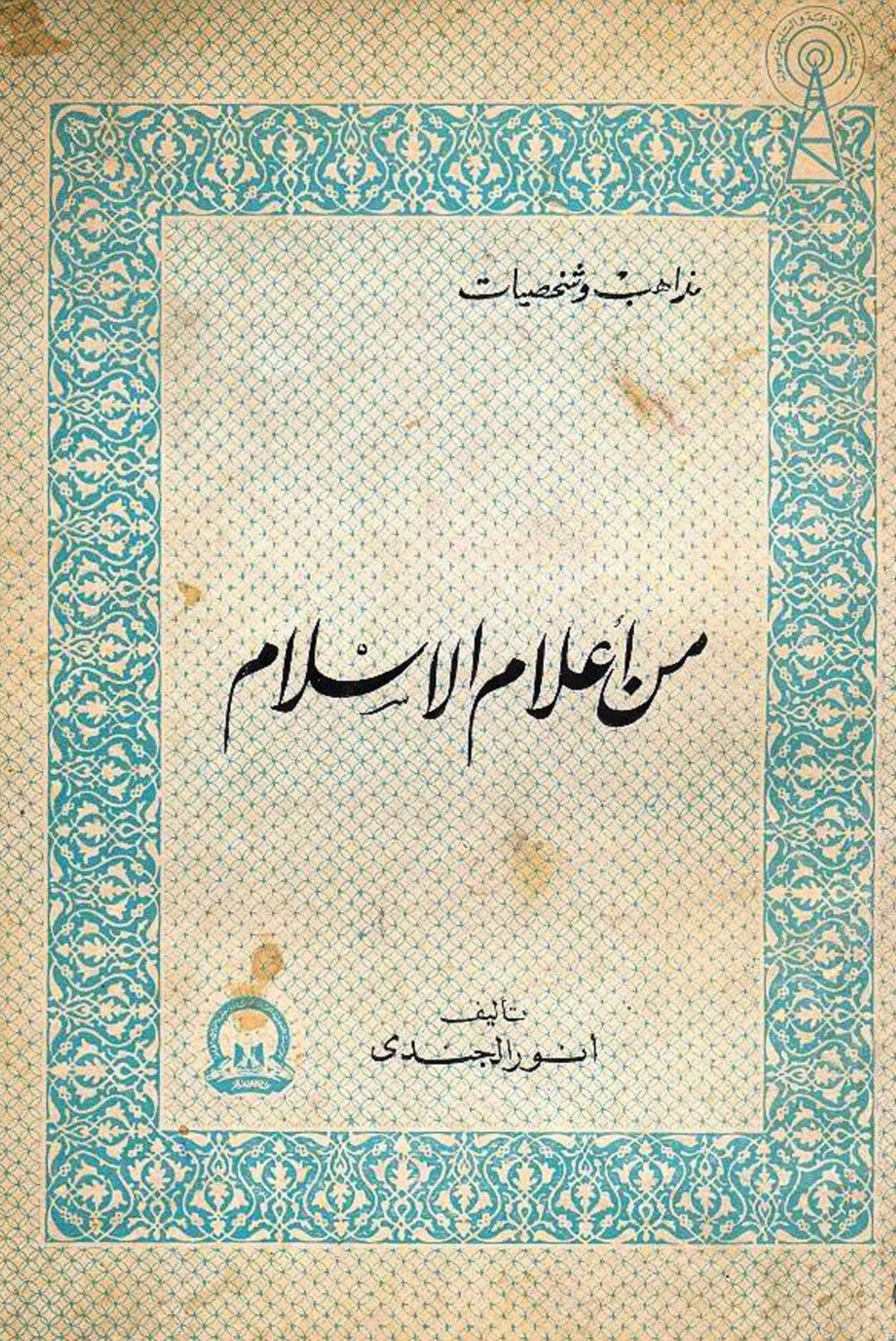


مذاهب وشخصيات
من أعلام الإسلام
تأليف
أنور الجندي

مذاهب وشخصيات

من أعلام الإسلام

تأليف
أنور الجندى

اليوم والأمة العربية فى خضم معركة الوحدة والقوة والحرية ، نتطلع الى معالم البطولة فى حياة هذه الصفوة من رجالنا ، هذه البطولة التى قامت على الايمان الصادق بالاهداف الرفيعة والمثل العليا والقيم الانسانية •

أنور الجندى

« رأيت قوما الموت أحب اليهم من الحياة والتواضع أحب اليهم من الرفعـــة ، ليس لأحد منهم فى الدنيا رغبة ولا نهمة ، أميرهم كواحد منهم ، ما يعرف كبيرهم من صغيرهم ولا السيد من العبد ، واذا حضرت الصـلاة لم يتخلف أحد منهم »

(قالها الجندى المجهول ردا على سؤال المقوقس)

تصدير

بسم الله الرحمن الرحيم :

شغلت نفسى بالدراسات العربية والاسلامية عشر سنين ٠ قرأت خلالها عددا كبيرا من أمهات الكتب القديمة والحديثة والمجددة ، ولقد هدانى ايمانى بعظمة النفس العربية أن أقدم لها نماذج من (أعلام العرب والاسلام) الذين كانوا مثلا أعلى فى الفكر والحكم والحرب ٠ من الذين مازالوا الى اليوم منائر تهدى الى الحق والقوة والعدل ، وترسم لنا الطريق الى الغد العظيم المأمول ، الذى تتكشف بشائر فجره ، وتتوالى علائم مشرقه ٠

ذلك أننا نؤمن بالسبيل الوسط ، لا ننحرف الى مذاهب الشرق أو مذاهب الغرب ، هذا السبيل الذى تتأكد فيه شخصيتنا العربية فى ملامحها القوية الواضحة ٠ هذه الملامح التى تستمد عناصرها الأصيلة من أمجادنا وتراثنا وتاريخنا من ناحية، ومن الحضارة الانسانية فى أرقى علومها وفنونها واختراعاتها من ناحية أخرى ٠ يمتزج ذلك كله ويتداخل فلا يطغى طرف منه على طرف ٠ ولا يذهب بنا الى محو شخصيتنا بالذوبان فى مادية الحضارة ٠ ولا يتوقف بنا الى حدود ماضينا وحده بتجميد صورتنا ٠ وانما نقف موقف المرونة فى التلقى والمزج والاذابة فى كياننا ، فنتجدد دائما . ولا نتوقف أبدا ٠ ونجرى مع تيار التطور شخصية واضحة وقوة فاعلة تؤثر ولا تخرج عن نطاق كيانها الخالد الباقى على الزمن ٠

ولقد آمنت أيضا بأن الزمن قد دفع الناس الى السرعة ، ولم يعد لدى القارئين من الوقت ما يمكنهم من استيعاب البطولات وهم لذلك يؤثرون المختصرات التى يمكن أن تقدم عصارات مركزة ، حديثة العرض ، سلسة العبارة ، جيدة الأداء عن البطولات . لذلك آثرت أن أقدم أكبر مجموعة من صور الاعلام بسيطة مركزة ، وفق أحدث أساليب كتابة التراجم وفى ضوء علم النفس ٠

وقد رأيتنى أقف طويلا عند « البطولات » فى حدود المثل الأعلى ٠ وبهرتنى مواقف رائعة تجلت فيها عظمة الشخصية عندما تحقق نصرا أو تحول تاريخا أو تدك قديما باليا ٠ أو تمزق ماضيا مهلهلا ٠

لذلك حاولت أن أرسم لهؤلاء الاعلام صورة نفسية : من أعماق الحياة

وغاية رجائى أن أكون قد وفقت فى محاولة دراسة الشخصية العربية فى هذه الصور ، وفق الأسلوب الحديث فى دراسة التراجم وكتابة السير والله الموفق ٠

« أنور الجندى »

* ان الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه ٠

عمر بن الخطاب

عن نافع أن رفقة من التجار قدموا المدينة فذهب عمر بن الخطاب وهو خليفة يحرسهم ومعه عبد الرحمن بن عوف فسمع بكاء صبى فتوجه عمر نحو أمه ٠ وقال لها : اتقى الله واحسنى الى صبيك ٠ ثم سمع بكاءه مرة ومرة ٠ فلما كان من آخر الليل سمع بكاءه فأتى أمه فقال : ويحك ٠ انى لأراك أم سوء . مالى ارى ابنك لا يقر منذ أول الليل؟ قالت : قد اضجره منذ أربع ليال أمر الفطام . قال : ولم ؟ قالت لأن عمر لا يفرض من بيت المال الا للطفل الفطيم ٠ قال لها لا تعجليه ٠ فصلى الصبح وما يستبين الناس قراءته من غلبة البكاء ٠ فلما سلم قال : يا بؤسا لعمر ٠ كم قتل من أولاد المسلمين ٠ لا تعجلوا صبيانكم عن الفطام فاننا نفرض لكل مولود ٠

تلك صورة من جوانب شخصية عمر تمثل « اليقظة » وهذه صورة أخرى ٠

بينما كان عمر بن الخطاب يخطب بالمدينة خطبة الجمعة : التفت من الخطبة ونادى : « يا سارية بن حض ! الجبل الجبل ٠ ومن استرعى الذئب ظلم » ٠ فلم يفهم السامعون مراده ، فلما قضيت الصلاة سأله على ٠ فقال عمر : أوسمعت ما قلت ؟ لقد وقع فى خاطرى أن المشركين هزموا اخواننا وأنهم يمرون بجبل فان عدوا اليه قاتلوا من وجدوه ٠ وان جاوزوه هلكوا ، فخرج منى هذا الكلام ٠ ثم جاء بعد من ميدان القتال من ذكر أنهم سمعوا صوتا فى تلك الساعة يشبه صوت عمر يقول « يا سارية الجبل » قال فعدلنا اليه ففتح الله علينا ٠

وهذه تمثل « الالهام » ٠

مر عمر فى سوق المدينة فرأى اياسا بن سلمة معترضا فى طريق ضيق فخفقه بالدرة ، وقال له : أمط عن الطريق يابن سلمه .

ثم دار الحول ولقيه فى السوق ٠ فسأله : أردت الحج هذا العام ؟ قال نعم يا أمير المؤمنين ٠ فأخذ بيده وأعطاه ستمائة درهم ٠ وقال يابن سلمة استعن بهذه واعلم أنها من الخفقة التى خفقتك بها عام أول ٠ قال اياس : يا أمير المؤمنين ما ذكرتها حتى ذكرتنيها ٠ فأجابه عمر : انا والله ما نسيتها

وهذه صورة « الوفاء » ٠

ساوم مرة رجلا على فرس يريد أن يشتريه منه فركبه ليجربه فعثر الفرس وكسرت ساقه فقال الرجل: خذ فرسك . فأبى الرجل، فطلب منه عمر أن يختار حكما يتخاصمان أمامه · فاختار صاحب الفرس (شريحا) فتحاكما اليه فقال : يا أمير المؤمنين : خذ ما ابتعت أو رد كما أخذت · فأجاب عمر : وهل القضاء الا هكذا : سر الى الكوفة قاضيا ·

وهذه صورة « العدل » ·

قال على بن أبى طالب رضى الله عنه :

ما علمت أن أحدا من المهاجرين هاجر الا متخفيا · الا عمر بن الخطاب فانه لما هم بالهجرة تقلد سيفه وتنكب قوسه وانتضى فى يده سهما واختصر عنزته (عصا لها زج كالرمح الصغير) ومضى قبل الكعبة ، والملأ من قريش بفنائها · فطاف بالبيت سبعا متمكنا · ثم أتى المقام فصلى · ثم وقف على الحلق واحدة واحدة يقول لهم : شاهت الوجوه . لا يرغم الله الا هذه المعاطس · من أراد أن يثكل أمه أو يوتم ولده أو يرمل زوجه فليلقنى وراء هذا الوادى ·

وهذه صورة « الشجاعة » ·

ومن هذه الجوانب تبدو صورة عمر : قوية عادلة وفية يقظة ملهمة · الشخصية القويه المدلة بقوتها حين تنتقل من صف الى صف ، وهى تحمل نفس الايمان المكين ، وتندفع فى الطريق الى كل مكان جلست فيه بالشرك لتجلس فيه بالاسلام .

وهو هو الانسان المتلز طوال حياته ، صاحب الشخصية الواضحة القوية التى كانت تقول رأيها فى وضوح ولا تبالى أن تختلف مع الرسول نفسه · وقد كان عمر مهيبا حتى كان الرسول يهابه ويحترم رأيه ·

عندما وقع الرسول عقد الحديبية وقفل عائدا مضى عمر فحاذاه وأخذ يراجعه ويقول له : يارسول الله انعطى الدنية فى ديننا . ولم يسترح حتى قال له اننى رسول الله ولن يضيعنى الله أبدا ·

وروى عن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه · قال استأذن عمر على رسول الله وعنده نساء من قريش يكلمنه ويستكثرنه عالية أصواتهن · فلما استأذن عمر قمن يبتدرن الحجاب · فأذن له الرسول فدخل · والرسول يضحك فقال عمر : أضحك الله سنك يا رسول الله · قال : عجبت من هؤلاء اللاتى كن عندى لما سمعن صوتك ابتدرن الحجاب · قال عمر فأنت يارسول الله كنت أحق أن تهاب . فقال عمر : أى عدوات أنفسهن أتهبننى ولا تهبن رسول الله ؟ قلن : نعم . ان فيك غلظة . قال النبى : يا عمر والذى نفسى بيده : ما لقيك الشيطان قط سالكا فجا الا سلك فجا غيره ·

وهو الذى لم يغنه فى الخمر البيان الأول · وطفق يسأل حتى نزل

فيها بيان شاف . وأشار بقتل الأسرى فى بدر وخالفه الرسول وابو بكر. ونزل القرآن موافقا رأيه (١) .

وهكذا كان واضح الشخصية فى حياة الرسول يشير عليه ويراجعه ويعلل رأيه ولا يرجع حتى يقتنع . وقال الرسول عنه : « ان الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه » .

وكان الى هذا جرىء الرأى فيه عاطفة حادة لا يحب الوسط من الأمور .

عندما رأى أبا سفيان فى معسكر المسلمين ليلة فتح مكة دخل على الرسول يطلب اليه ان يأذن له بقتله . وكذلك فعل فى كل موقف رأى فيه هجوما على الاسلام أو الرسول .

وبلغ من جرأته أنه عندما جاءت الرسول غمرة الموت دعا بطرس يملى على المسلمين كتابا قال : ان النبى غلبه الوجع وعندنا كتاب الله .

ولكن اندفاعه ذلك لم يكن يمنعه من أن يخطىء : لما توفى رسول الله بكى الناس فقام عمر خطيبا فى المسجد فقال : لا اسمعن احدا يقول ان محمدا قد مات ، ولكنه أرسل الله اليه كما ارسل الى موسى بن عمران . والله انى لأرجو أن تقطع أيدى رجال وارجلهم يزعمون انه قد مات. واقبل أبو بكر فأسكت عمر وتلا الآية : « وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل أفان مات او قتل انقلبتم على أعقابكم » هنالك لم تحمل عمر رجلاه وهوى الى الأرض .

ومن قوة شخصيته أنه اعترف بخطئه عندما وقف يقول : لا تزيدوا مهور النساء على اربعين أوقية . قالت امرأة : ان الله يقول : « وآتيتم احداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا » قال عمر : أصابت امرأة وأخطأ عمر .

وظل عمر معروفا بوضوح الراى وقوة العاطفة ، والطبيعة الزاهدة. حتى ولى الخلافة فعرف بالعدالة المطلقة التى بلغت غايتها وحدودها . والتى امتدت الى أهله قبل الناس جميعا . فكان من نصيبهم مضاعفة الجزاء فى العقوبة والدرجات الأقل فى العطاء . فلم يول عمر أحدا من أهله ابان خلافته . ولكنه عندما أقام الحد على ابنه ومات قبل أن يتم ، أمر أن يستوفى وهو ميت .

وكان بعيد النظرة ، أكسبته الحياة خبرة وتجربة عميقتين . قال رجل لعمر : ان فلانا رجل صدق . قال : هل سافرت معه أو ائتمنته ؟ قال لا . فقال : لعلك رأيته يرفع رأسه ويخفضه فى المسجد .

---

(١) وذلك فى مقام ابراهيم ، وفى الحجاب ، وفى تحريم الخمر حين قال : اللهم بين لنا فى الخمر فانها تذهب المال والعقل فنزل قوله تعالى : « يسألونك عن الخمر .. الخ » فقال : اللهم بين لنا فى الخمر بيانا شافيا فحرمت فى الصلاة فقال : اللهم بين لنا فى الخمر بيانا شافيا فنزل قوله تعالى : « انما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون » وموافقته فى ترك الصلاة على المنافقين وفى الاستئذان وموافقات أخرى كالأذان وغيره

وكان يكره المغالاة حتى فى العبـادة . لما رأى شابا منكسا رأسه فى المسجد صاح به : ارفع رأسك فان الخشوع لا يزيد على ما فى القلب . وقال للرجل المنطوى فى ذلة بعد أن علاه بالدرة : لا تمت علينا ديننا .

وكان واضحا فى ايمانه ، قويا ، لا يقبل الا كل صريح وحق . لما قبل الحجر الاسود قال : انى لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع . ولولا أنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك ما قبلتك .

وكان عمر خشنا شديدا ، ضرب المثل فى الخشونة والشدة . قال عمر : والله انا كنا فى الجاهلية ما نعد للنساء أمرا . حتى أنزل الله تعالى فيهن ما أنزل ، وقسم لهن ما قسم . فبينا أنا فى أمر أئتمره ، اذ قالت لى امرأتى : لو صنعت كذا وكذا فقلت لها : وما لك أنت وهذا . فقالت لى عجبا يابن الخطاب : ما تريد أن تراجع أنت وان ابنتك لتراجع رسول الله حتى يظل يومه غضبان .

وقد كان عمر يحب الغناء ويطيل الاصغاء اليه ولكنه كان ورعا . روى أنه بينما كان متجهـا الى مكه فى جوف الليل سـمع صوتا يغنى فما زال يوضع راحلته حتى دخل بين القوم يسمع الى مطلع الفجر . ثم قال للقوم : ايه قد طلع الفجر ، اذكروا الله .

ولما ولى عمـر بن الخطاب الخلافة صعد على المنبر وقال : اللهم انى غليظ فلينى لاهل طاعتك بموافقة الحـق . وارزقنى الشدة على أعدائك وأهل الدعارة والنفاق . اللهم انى شحيح فسخنى فى نوائب المعروف قصدا من غير سرف ولا تبذير .

بلغنى أن الناس هابوا شـدتى . وخافوا غلظتى . وقالوا : كان عمر يشتد علينا وأبو بكر والينا دونه ، فكيف اذا صارت الأمور اليه ؟ ومن قال ذلك فقد صدق . كنت سيفا مسلولا حتى يغمدنى أو يدعنى فأمضى . فلم أزل معه كذلك حتى قبضه الله . ثم انى وليت أموركم . فاعلموا أن تلك الشدة ضوعفت ولكنها انما تكون على أهل الظلم والتعدى . فأما أهل السلامة والدين والفضل فأنا الين لهم من بعضهم لبعض . فاذا غبتم فى البعوث فأنا أبو العيال حتى ترجعوا اليهم ولكم على ألا أجتنى شيئا من خراجكم الا فى وجهه .

وقد وفى عمر لمهام عمله كحاكم أصدق وفاء حتى يروى على ابن أبى طالب فيقول : رأيت عمر على قتب (بعير) فقلت يا أمير المؤمنين : أين تذهب ؟ فقال : بعير ند (شرد) من ابل الصدقة أطلبه . فقلت لقد أذللت الخلفاء من بعدك . فقال عمر : يا أبا الحسن لا تلمنى . فو الذى بعث محمدا بالنبوة لو أن عناقا (عنزا) ذهبت بشاطىء الفرات لسئل عنهـا عمر يوم القيامة .

وكان لا يشغله الا الولاة يتخيرهم ويسأل عنهم : قال لأصحابه مرة : دلونى على رجل أستعمله . قالوا : وما شرطك فيه . قال : اذا كان فى القوم وليس أميرهم كان كأنه أميرهم ، واذا كان أميرهم كان كأنه رجل منهم

وكان اذا ولى واليا كتب عليه العهد الا يركب برذونا ولايأكل نقيا ، ولا يلبس رقيقا ، ولا يغلق بابه دون حاجات الناس .

وكان يقول : أشقى الولاة من شقيت به رعيته .

وكان غيورا على الناس يدفعهم ويحول بينهم وبين الشر : يقول : انه قريشا تريد أن تكون مغويات لمال الله تعالى . أما وأنا حي فلا . الا أنى آخذ بحلاقم قريش عند باب الحرة أمنعهم من الوقوع فى النار .

وقوله : انما مثل العرب مثل جمل أنف اتباع قائده فلينظر قائده حيث يقود . أما أنا فورب الكعبة لاحملنهم على الطريق .

وكان رايه فى الرجال عميقا بعيد المدى ـ يقول : الرجال ثلاثة:رجل ذو عقل ورأى فهو يعمل عليه ، ورجل اذا حزبه أمر آتى ذا رأى فاستشاره ورجل حائر لا يأتى رشدا ولا يطيع مرشدا . وقال يوما لمن حوله : ارايتم اذا استعملت عليكم خير ما أعلم ثم أمرته بالعدل اكنت قضيت ما على ؟ قالوا : نعم . قال لا . حتى أنظر فى عمله ، أعمل بما امرته أم لا .

وله فى أمر الحرب والجيوش المحـــاربة مواقف تدل على مدى يقظته وصدق عزيمته وايمانه . يقول لسعد بن أبى وقاص : ترفق بالمسلمين فى سيرهم ولا تجشمهم مسيرا يتعبهم ولا يقصر بهم عن منزل يرفق بهم حتى يبلغوا عدوهم . والسفر لم ينقص من قوتهم . واقم بمن معك فى كل جمعة يوما وليلة حتى تكون لهم راحة يحيون بها أنفسهم .

وكان يكتب لكل قائد من قواده : صف لنـــا منازل المسلمين والبلد الذى بينكم وبين المدائن . صفه كأنى أنظر اليه واجعلنى من أمركم على الجلية .

ويقول : « أنت الشاهد وأنا الغائب . والشـــــاهد يرى ما لا يرى الغائب » .

ولما زار أبو سفيان ابنه معاوية والى الشام ورجع من عنده دخل على عمر ، فسأله عما حمل معه من الشام فأنكر أبو سفيان أنه أحضر معـــه شيئا . فمد عمر يده الى أصبع أبى سفيان وخلع خاتمه ثم اعطاه لرسوله وقال له : اذهب الى هند زوجة أبى سفيان واعطها هذا الخاتم ، وقل لها ان أبا سفيان بعثنى فيما أحضره معه من الشـــام فصدقت هند وسلمته خرجين فيهما عشرة آلاف درهم ، فطرحهما عمر فى بيت المال .

وكان من فرط حرصه على العدل يأتى مجزرة الزبير بن العوام ومعه الدرة فان رأى رجلا اشترى لحما يومين متتابعين ضربه بالدرة وقال : الا طويت بطنك يوما .

وقد جعل موسم الحج موسما عاما لمحاسبة الولاة . ووضع نفســه مثلا لولاته فقال : لا يحل لعمر من مال الله الا حلتان : حلة للشتاء وحلة للصيف وما أحـــج به واعتمر وقوتى وقوت أهلى كرجل من قريش ليس اغناهم ولا أفقرهم ، ثم أنا بعد ذلك رجل من المسلمين .

وقد كان حفيا بالفقراء يقول : يا معشر الفقراء ارفعوا رءوسكم فقد وضح السبيل فاستبقوا الخيرات ولا تكونوا عيالا على المسلمين .

ويقول : لو استقبلت من أمرى ما استدبرت لاخذت فضول أموال الاغنياء فقسمتها على الفقراء .

وكان عمر متواضعا خشنا لا يحب المظاهر البراقة ولا يتعالى ، فيه زهادة واضحة . عندما قدم الى الشام كان يركب حمارا تبادل ركوبه مع خادمه وعليه جلباب .

وكان يستطلع أنباء المحاربين فيخرج من المدينة ويوغل فى الطريق حتى يلقى من يسأله . ولقى مرة رجلا قادما من فارس فسأله عن المسلمين فذكر له الرجل انتصارهم واستشهاد النعمان بن مقرن فهاله النبأ ، وآدته المصيبة فبكى ونشج . فلما رأى الرجل ما دهاه أراد أن يخفف عنه فقال يا أمير المؤمنين : ما قبل بعده من رجل يعرف وجهه (أى من سواد الجند ليس فيهم قائد) فلم يشغل عمر بكاؤه على النعمان من الرد عليه فقال : لكن الذى أكرمهم بالشهادة يعرف وجوههم وأنسابهم !!

وهو مثل للاناة . قيل له رجل ارتد . قال فماذا فعلتم به ؟ قالوا : قتلناه . قال : هلا أدخلتموه بيتا وأغلقتم عليه وأطعمتموه كل يوم رغيفا فاستتبتموه ، فان تاب والا قتلتموه . اللهم انى لم أشهد ولم آمر ، ولم أرض اذ بلغنى .

وكان لا ينام الليل ويقضى يومه يقظا . بعث أحد الولاة رسولا الى عمر فلما وافى المدينة ليلا قال : أنام فى المسجد حتى اذا أسفر الصباح أبلغت الرسالة . فلما دخله سمع صوتا خافتا يناجى فقال السلام عليك يا أخا العرب .

فقال عمر : من !!! يرحمك الله . قال انى رسول والى مدينة كذا الى أمير المؤمنين . قال له : تعال هنا وقل ما عندك . أنا عمر . فعجب الرسول وقال له عمر : بئس ما ظننت يا أخى كيف أكون مسئولا وأنام . والله لو نمت نهارى لضيعت الرعية ولو نمت ليلى لضيعت نفسى .

وفى معنى القوة فى شخصية عمر حديث الرسول عنه : أريت فى المنام أنزع بدلو بكرى على قليب فجاء أبو بكر فنزع ذنوبا أو ذنوبين نزعا ضعيفا. والله يغفر له ، ثم جاء عمر بن الخطاب فاستحالت غربا . فلم أر عبقريا يفرى فريه حتى روى الناس وضربوا بعطن» . وقد تحققت نبوءة الرسول فى حكمه الطويل . وقد كان عمر مطبوعا على الحق لا يهاب فيه أحدا . وموقفه مع ابن عمرو بن جبله بن الايهم وأبى سفيان يعطى المثل فى ذلك . ومن حسابه لنفسه أنه حرم على نفسه الطعام عندما أصابت المسلمين المجاعة ، واكتفى بالزيت حتى اسود لونه .

وكان يمتنع أن يأخذ من بيت المال قرضا حتى لا يتركه الناس له اذا مات قبل أن يسدده . وقال بئس الوالى أنا ـ ان شبعت ـ والناس جياع .

وكان الى هذا الزهد مخيفا حتى لقد رفضت النساء انزواج منه والعيش معه وقالت عنه احداهن انه خشن العيش شديد على النساء ·

وقد أمن الناس منه طابع الشدة والصرامة حتى ليقول للرجل مرة اننى أكرهك فيقول له : هل ينقص ذلك من عطائى ؟ فاذا قال له عمر : أن لا ، قال الرجل : اذن لا يبكى على الحب غير النساء · وهذا معنى من معانى التجرد الخالص الذى يفصل بين العواطف والحقوق ·

وكان يحصى ثروات الولاة قبل أن يوليهم ثم يحاسبهم كل عام ويدعوهم أن يحضروا الى المدينة نهارا . ويسأل عنهم أهل أقطارهم فى مواسم الحج ، ويرسل اليهم من يتعرف أعمالهم . ويحرق باب البيت الذى بناه سعد بن أبى وقاص والى الكوفة ويقول له : ان بيت الوالى لا باب له ..

وكان قد عزم على أن يزور الاقاليم كلها ليتعرف حاجات الناس واعمال الولاة ، لولا ان ادركه الموت . وقد حاسب خالدا واقتسم معه نعايه . كما حاسب عمرو بن العاص وابا هريرة .

وله قصص فى البحث عن الرعية ليلا · وقصته مع أم الطفل الرضيع ومع بائعة اللبن التى كانت تخلطه بالماء · والزوجة التى غاب زوجها فى الحرب · والمرأة التى كانت توقد للاطفال على الماء حتى يناموا · ويذهب بنفسه فيحرس التجار الذين يقدمون ليلا · ولا يعهد بهم الى غيره · ويعالج ابل الصدقة بنفسه ويمر على بيوت الغائبين فيسأل ويقرأ البريد ويكتب لهم الردود . ويشترى لهم حاجتهم من السوق .

وقد قضى للطفل منذ أن يولد ، واعطى العاجز ولو كان يهوديا . وفرض للمولود اللقيط ، وأمر بأن يعود المحاربون بعد فترة الى أهليهم . وكان لا يقضى بالحد الا بعد أن يستنفد كل أسباب الشك فى القضية . وكان يحاول أن يجد مندوحة عنه ويقول : « اذا رأيتم أخا لكم زل زلة فسددوه ووقفوه وادعوا الله أن يتوب عليه » ·

وهو كحاكم يغار على المرأة ويرفض اقامة الشاب الذى ناجته المرأة أن يبقى بالمدينة ، ويغار من كل ما يختلف مع طبعه · فقد خفق بدرته الرجل الذى رآه يتبختر فى الطريق وآخر يتكلف الخشوع فى المسجد· كما ضرب بالدرة الامة التى رآها تتشبه بالحرائر . وساوم الحطيئة على ترك هجاء الاعراض فى مقابل ثلاثة آلاف درهم .

ومن قوله : من كتم سره كان الخيار فى يده · أعقل الناس أعذرهم للناس . من لم يعرف الشر كان أجدر أن يقع فيه . اشكو الى الله ضعف الأمين وخيانة القوى . لا يكن حبك كلفا ولا بغضك تلفا . تفقهوا قبل أن تسودوا · ارووا الاشعار فانها تدل على الاخلاق ·

ولقد حكم عمر عشر سنوات كانت من أبرز سنوات الاسلام حياة وجهادا وقوة ، جمع القرآن بعد أن استحر القتل فى القراء · فتح فى عهده العراق والشام ومصر ·

وترك ذكرا ضخما وصورة جبارة للحاكم العادل ·

* قضية ولا أبا حسن لها ٠

على بن أبى طالب

تعطيك أحداث حيـاته منذ فجرها الى نهايتها صـــورة « الورع » مظهرها هذه الزهادة المؤمنة مع الشجاعة التى لا تحس معها ميلا الى الطمع فى الوصول الرخيص ٠

وهو على صفته من « الورع » لا يتحول مع الزمن ٠ ولا يترك شعيرة من شعائر خلقه أو شميلة من شمائل طبعه فى سبيل مواجهة موقف من المواقف بالغدر أو الخداع أو بالحيلة ٠

وقد تغيرت الدنيا بعد عمر ولكن عليا لم يتغير واختلفت وســائل الناس فى فهم الامور وقبولها والاقتناع بها وبقى هو على طابعه من الشجاعة والمروءة والعدل ، لا يحيد ولا يمالىء ولا يحابى فى الحق الذى اعتقده ٠

لا يعرف البغى ولا يغدر بخصمه قبل المعركة ولا فى خلالها ٠ فاذا انتصر عليه عامله بخلق السماحة والمروءة ، وهو مع ثقته بأنه على الحق ، وقدرته الحربية على الظفر لا يبدأ بخصومة ويجنح الى السلم ويقبل رأى أنصاره ٠

ولى الخلافة والدنيـــا من حوله مضطرمة بالفتنة والخلاف والصراع . ولكنه ظل على طبيعته واستعداده محتفظا بمثله العليا يريد أن يعود بالناس مرة أخرى الى نهج النبى وطريق عمر ٠ وكان ذلك عسيرا ، فان الفترة التى قضاها عثمان فى الحـــكم غيرت كل شىء وفتحت الكثير من الأبواب ومرن الناس خلالها على أوضاع وأساليب لم يكن من اليسير ردهم عنها بعد ٠

ذلك أن عثمان بحكم سنه المرتفعة وطبيعته العاطفية وفهمه للحياة، وغنائه وثرائه وحبه لاهله والمقربين اليه ، جعل من العسير على « على » أن يعيد الناس ، ولم يكن فى طبع على ما يجعله يجارى أهواء الناس ويخضع لمطامعهم ٠

وكانت هذه نقطة الارتطام فى خلافته خــلال خمس سنوات كانت حربا مستمرة بين على وبين مثيرى الفتن وبين على وبين من كانت لهم ضلع قوية وعضد متين فى تأليب الناس بعضهم على بعض ٠

كان عنوان هذه الحروب « الطمع » من ناحية مثيريها ٠ وكانت من ناحية على ايمانا بحق الحاكم الذى لم يتقدم للحكم ، والذى عندما طلب اليه تردد ٠ فلما وجد الامر يتعلق بالشهامة والمصير العام قبل المسئولية وتقدم ٠

وقد سجل هذا على حين قال : «لقد اتيتموني فقلتم لي بايعنا فقلت لكم لا أفعل وقبضت يدي فبسطتموها ونازعتكم كفي فجذبتموها • وقلتم لا نرضي الا بك ولا نجتمع الا عليك • فبايعتموني وبايعني طلحة والزبير • ثم ما لبثا أن استاذنا للعمرة فسارا الى البصرة فقتلا بها المسلمين وفعلا الأفاعيل » •

لقد شهد على الناس وهم يتحولون من حكم عمر الى حكم عثمان • وقد خرج أصحاب الرسول من مكة الى الامصار ، وفتحت الامصار ، وتدفقت الأموال ، وتوقف الجهاد أو كاد ، وشمل الناس جو من الحياة الهادئة اللينة ••

فكان طبيعيا أن تثور المطامع وأن تلبس أثوابا من المطالبة بدم عثمان أو غيره من التعلات •

ربى « علي » في أحضان الاسلام • وكان ثالث ثلاثة دخلوا في الدين الوليد : خديجة وأبو بكر • ونشأ وفي دمه هذه الصورة الحلوة الرائعة ، صورة رسول الله في حربه وسلمه وزهده وتقشفه وحكمته وعلمه • وكان يخرج مع الرسول وخديجة يصلون في الشعاب • وعرف منذ شبابه بالشجاعة • وهو الذى اختاره الرسول لينام في فراشه ليلة الهجرة ، وحيث التحف ببرده الاخضر وقضى ليلته • وقد قبل ذلك وهو يعلم أن قريشا تأتمر بالنبى لتقتله ، وهاجمه القوم في أول الصباح ، ولما لم يجدوا محمدا في الدار أوسعوه ضربا وحبسوه في المسجد وأقاموا عليه الحراس والارصاد •

وقد خاض المعارك كلها الى جوار رسول الله • وكتب عقد الحديبية • وتلا صدر براءة في العام الذى حج فيه أبو بكر بالناس حيث ارتضى الرسول أن يؤدى عنه هذا ، رجل من أهل بيته •

وقد عرف عنه أنه ما صارع أحدا الا صرعه • لم يبال الحر ولا البرد • كان جريئا على الموت . خرج « لعمرو بن ود » في معركة الخندق عندما نادى: هل من مبارز ؟ فلما رآه عمرو قال له : ان من أعمامك من هو أشد • واني أكره أن أريق دمك • قال له علي : ولكنى والله لا أكره أن أريق دمك •• فهوى عليه بسيفه فتلقاه في درقته ، ثم ضربه على فقتله •

وكان في خلافة أبي بكر وعمر وعثمان الناصح المشير •

وقد كان قاضيا فقيها : حتى قيل « قضية ولا أبا حسن لها » وكان يقول : سلوني عن كتاب الله • فو الله ما من آية الا وأنا أعلم أنزلت بليل أم نهار • في سهل أو في جبل • وروى عن قيس بن عباد قال : دخلت المدينة التمس العلم والشرف فرأيت رجلا عليه بردان • له ضفيرتان واضعا يده على عاتق عمر ، فقلت : من هذا ، قالوا : على بن أبي طالب •

وكان يردد دائما قوله : ألا انبئكم بالفقيه حق الفقه • من لم يقنط الناس من رحمة الله ولم يرخص لهم من معاصى الله ولم يؤمنهم من مكر الله

وقد أحبه الرسول وآخاه بنفسه مرتين ، وزوجه من ابنته فاطمة وقال له : أنت منى بمنزلة هارون من موسى • الا أنه لا نبى بعدى •

وقد اشترك في قتال بدر وسنه عشرون عاما كما اشترك في أحد والخندق • وأرسله الرسول في أثر القوم بعد أن انصرفوا من أحد ليعرف ماذا يكون من أمرهم ، فلما رآهم يركبون الابل عرف أنهم قصدوا الى مكة فعاد الى الرسول يبلغه الامر •

وفى خيبر امتنعت الحصون على المسلمين بعد أن جهد أبو بكر يوما وعمر يوما آخر . وقال الرسول : لأعطين الراية غدا رجلا يحب الله ورسوله يفتح الله على يديه . ليس بالفرار . وبات المسلمون يحزرون من سيكون، فلما أصبح الصباح أعطى الراية لعلى •

وقد فتح له . وشدد على المشركين ، وكان يضرب على الهامة فيسمع أهل العسكر صوت الضرب فتراجع العدو وانكسر وأسلمت الحصون للمسلمين .

وقد حدث له أن أراد مدافعة عدوه فاجتذب باب الحصن فألقاه على الارض ثم اجتمع عليه سبعون رجلا حتى أعادوه •

وكان يستحى من العورات . وقد ترك طلحة بن عثمان فلم يجهز عليه فى أحد لانه كشف عورته • وأصابته فى هذه المعركة ست عشرة ضربة ولم يبال بها • فقد كان يحمل لواء الرسول بعد أن قتل مصعب بن عمير • وقد وقف يناضل عنه ويدافع حين تفرق المسلمون •

وقد بعثه النبى الى همذان فأسلمت فى يوم واحد •

ولم يندب على خلال خلافة أبى بكر وعمر وعثمان لقيادة الجيوش • ولم يدع الى الولاية والامارة ــ ولم يدع أحد من أهل بيته ــ ولقد صور عمر مرمى هذا حين قال للعباس : انى رأيت رسول الله استعمل الناس وتركم. والله ما أدرى أضن بكم عن العمل فأهل ذلك أنتم ، أم خشى أن تبايعوا بمنزلتكم منه •

وقد توقف « على » عن البيعة لأبى بكر أول الأمر ، ثم بايع ، وكان فريق من المسلمين يرونه أحق بها •

ولما وقعت الفتنة فى عهد عثمان وقف منها موقفا دقيقا غاية الدقة ، فقد كان يخالف عثمان الرأى فى بعض الامور ، وكان الناس يقصدونه ويكلمونه فى تصرفات عثمان وأتباعه •

وحين انتهى الامر بمقتل عثمان • وصل الامر اليه على هذه الصورة من الخطر والفتنة والمطامع • فواجه الموقف على طريقته وأسلوبه • فأغضب ولم يرض • كان طلحة يطمع فى ولاية العراق والزبير فى ولاية اليمن ولكنه عزل ولاة عثمان وولى بدلا منهم ولم يولهما ، فانتقضا عليه .كما عمد الى استرداد الاقطاعات التى وهبها عثمان للمقربين وضمها لبيت المال • ولكن معاوية رفض أن يبايع لعلى ودعا الى ثأر عثمان وطالب بدمه باعتباره وليه • واتسعت الفتنة وقمعها على بالحرب وانتصر ، ولكن أنصاره اختلفوا وصنع

الدهاء مع معاوية وتابعه عمرو بن العاص ما لم يفعل الورع مع على وتابعه ابى موسى الأشعرى الذى عزل صاحبه فقام عمرو فثبت صاحبه . ورد ام المؤمنين عائشة ، التى خرجت مع الزبير وطلحة معززة مكرمة بعد هزيمتها وصاحبيها فى معركة الجمل .

ولم ينخدع على عندما رفع أصحاب معاوية المصاحف على السيوف ، ولكن أصحابه أرغموه • ولم يقبل التحكيم ولكن أصحابه فرضوه عليه • فلما قبله خرجوا عليه •

وهنا أراد القدر أن يضع النهاية لهذه الحياة التى واجه صاحبها فى خلال أمد خلافته القصيرة مزيدا من الفتن والمتاعب والصراع الداخلى بين المسلمين ، فخرج ثلاثة يريدون أن يخلصوا الحكم من رجاله الثلاثة : على ومعاوية وعمرو • ففشل اثنان ونجح الذى أراد عليا • الخليفة الزاهد • نجح لأن عليا فى الحقيقة لم يكن من أهل الدنيا فى صراعها الذى بلغ غايته وترك معاوية وعمرو لانهما أقدر على مواجهة الحياة بأساليب السياسة والمكر والدهاء •

وكان هذا عنوانا على ختام دور الخلفاء الراشدين ، فى صورته النبوية العمرية الدقيقة •

ولقد كان على زاهدا حقا : يقول يا دنيا غرى غيرى •

وكان حكيما لا يرضى فى صراع الحياة بالتجهم فيقول : اجموا (أريحوا) هذه القلوب والتمسوا لها طريق الحكمة فانها تمل كما تمل الابدان •

وكان مسلكه عمريا فى حكمه حتى انه رفض أن يعطى أخاه «عقيلا» من بيت المال • وقال له : اصبر حتى يجىء مالى وأعطيك ما تريد • فغضب وفارق عليا وقصد معاوية فى الشام .

ولم يكن على يستأثر بشىء من الفىء ولا يخص به حميما ولا قريبا ولا يخص بالولايات الا أهل الديانات والامانات .

* لقد كان سدا لنحور العدو ميمون النقيبة .

خالد بن الوليد

« لقد شهدت مائة زحف او زهاءها .. وما فى بدنى موضع شبر الا وفيه ضربة بسيف أو رمية بسهم أو طعنة برمح – ولقد طلبت القتل فى مظانه فلم يقدر لى الا أن أموت على فراشى حتف أنفى كما يموت العير . ما من عمل أرجى عندى واحب بعد أن لا اله الا الله من ليلة شديدة الجليد فى سرية من المهاجرين .. وما ليلة يهدى الى فيها عروس أنا لها محب أو أبشر فيها بغلام أحب الى من ليلة شديدةالجليد فى سرية من المهاجرين » .

كانت هذه عبارة خالد الاخيرة قبل أن ينزل الستار على حياته الحافلة .. لتصبح بعد ذلك قصة خالدة فى فم التاريخ .

مائة زحف انتصر فيها خالد فى الجاهلية والاسلام . وفى مدى امتد أكثر من ثلاثين عاما . بدأه فى مكة وختمه فى قنسرين . ومضى رافعا سيفه فى وجه العدو فى شبه الجزيرة العربية الى العراق ثم الى الشام . وهو حيث يمضى ، الفارس المنتصر ذو الرأى فى الحرب والتنظيم . وذو الحيلة والخدعة للخصوم . وذو البأس الشديد على الكفار وزعماء حروبهم وقادة جيوشهم .

وله فى ذلك مواقف غر خالدة : يوم اجرى البحر بدم خصومه . ويوم اليمامة . ويوم مقتل مسيلمة . وهزيمته لطليحة بن خويلد . ومقتل مالك بن نويرة . وجولاته المظفرة فى حرب الردة . وفى ذات السلاسل والمزار والولجه واليس ومفيشا وهجماته فى الحيرة وعين التمر والانبار ودومة الجندل والفراض على شاطىء الفرات وموقعة عقرباء الطاحنة .

ومسيره بالجيش من العراق الى الشام فى مفازة لا ماء بها ، يوم أعطش الابل ثم سقاها وكمم أفواهها ومضى ينحرها فى مراحل الطريق فيروى الناس والخيل . ومواقفه فى اليرموك ودمشق وحمص وقنسرين

وكان خالد فى هذه المواقع قديرا على احراز النصر بالتكتيك الحربى المبتكر يعرف كيف يقوى الروح المعنوية فى جنوده وأتباعه . ويعرف كيف ينظم الجيش ويقسمه الى كراديس .

وعندما وصل الى الشام وجد جيوش المسلمين تقاتل متساندة كل قائد على حدة . عمرو فى فلسطين . وابو عبيدة فى حمص . وابن

أبى سفيان فى دمشق . فلم يوافق على هذه التجزئة . واقترح عليهم تبادل قيادة الجيش الموحد وقال : « هذا يوم من أيام الله لا ينبغى له الفخر . اخلصوا جهادكم وارضوا الله ولنتعاور الامارة وليكن عليها بعضنا اليوم . والآخر غدا والآخر بعد غد . لاتقاتلوا قوما على نظام وتعبئة . وأنتم على انتشار وتساند » .

وقد كان من نتائج هذا انتصار المسلمين فى اليرموك .

وكان خالد بطبيعته المحاربة اليقظة : لاينام ولا ينيم . ظل يترقب حول سور دمشق حتى عرف أن فرحا أقيم لمناسبة ميلاد طفل للبطريرك وأن الجنود ذهبوا الى هناك ، وعندئذ هاجم السور من مكان ضعيف واقتحم المدينة .

وعرف كيف يعالج نفسيات الجند فأمر أن تسير فرقة من نساء العرب مع الجيش لتقوى من عزم الجنود وتدفعهم الى الحماسة فى الحرب .

واستعمل نظام المؤخرة ، وأسلوب المفاجأة ، وطريقة التطويق . وعندما واجهته الخنادق لم يتوقف ، نحر ضعاف الابل من جيشه والقى بها فيها ثم أمر الجيش باقتحامها .

وعرف بالقسوة القاسية فى قتال أهل الردة ، يقتل دون رحمة أو شفقة . فيقطع الرقاب ويدمر القرى . حتى وصف عمر سيف خالد بأن فيه رهقا .

وعندما اجتمعت عليه الجموع فى « اليس » دعا الله ان منحه أكتافهم الا يستبقى منهم أحدا حتى يجرى النهر بدمائهم . فلما تمكن منهم ظل يأسرهم حتى اذا انتهى من المعركة أمر بضرب اعناقهم فى النهر فجرت دماؤهم مع مياه النهر ثلاثة أيام .

أسلم خالد متأخرا . فقد كان على رأس جيش قريش فى موقعة أحد ، وكان عاملا من عوامل هزيمة المسلمين فيها . وظل على رأيه فى الاسلام الى مابعد عمرة القضاء .

وكان قد شهد المسلمين فى الحديبية . ورأى رسول الله هو وأصحابه بعسفان يصلى . فقام وراءه وتعرض له . يقول خالد : « فصلى النبى بأصحابه الظهر اماما . فهممنا أن نغير عليه ثم لم يعزم لنا وكان فيه خير . فاطلع على مافى انفسنا من الهجوم به فصلى بأصحابه العصر صلاة الخوف. فوقع ذلك منى موقعا . وقلت «الرجل ممنوع » وافترقنا . فلما صالح قريشا بالحديبية ودافعته قريش بالسراج قلت فى نفسى : أى شىء بقى ؟ اين المذهب ؟ أالى النجاشى ، فان أتباع محمد وأصحابه آمنون عنده ؟ أفأخرج الى هرقل . فأخرج من دينى الى نصرانية أو يهودية ؟ أفاقيم فى عجم أو أقيم فى دارى فيمن بقى ؟ » .

وبينما هو فى هذه الحيرة دخل الرسول مكة فى عمرة القضاء .

وسأل عنه . وقال : ما مثل خالد يجهل الاسلام . ولو كان جعل نكايته وحده مع المسلمين على المشركين لكان خيرا له وقدمناه على غيره .

وسمع خالد هذا فاتجه الى المدينة فلما سئل فى ذلك قال : لقد استبان لكل ذى عقل أن محمدا ليس بساحر ولا شاعر . وان كلامه من كلام رب العالمين ، فحق على كل ذى لب أن يتبعه .

ومنذ ذلك اليوم فتح له فى التاريخ باب من الخلود لم يفتح لمثله من قبل . فقد اتيح له الظفر فى كل معركة حتى اطلق الرسول عليه عبارته الخالدة « سيف من سيوف الاسلام » . ولم يلبث أن أخذ مكانه سريعا فى الصفوف الاولى . وعندما فتحت مكة كان أحد الثلاثة الذين سيطروا على الكتائب : سعد بن عبادة، والزبير بن العوام، وخالد

واشترك فى حياة الرسول فى غزوتى : مؤتة وحنين . ولكن بطولته وعبقريته الفذة لم تبرز بصورة متألقه الا فى معارك الردة .

ولا شك أن انتصاراته فى شبه الجزيرة فى حروب الردة كانت بعيدة الأثر فى استقرار الاسلام وثبات قوائمه بعد أن كادت تزعزعه دعوات المتنبئين . واندفع الى العراق فمضى زاحفا حتى ضرب دولة الاكاسرة فى الحيرة . وصلى صلاة الفتح ثمانى ركعات بتسليمة واحدة وفى الشام بلغ قمة الظفر بمعركة اليرموك حيث هدم ركن دولة الرومان وصدها الى ما وراء الحدود وأتم النصر فى « قنسرين » .

وبذلك سجل خالد فى تاريخ الاسلام صفحات غراء بعيدة الاثر فى كيان الامبراطورية الاسلامية وعظمتها .

وكأنما كان ذلك ايذانا بانتهاء مهمته . فقد بلغ غاية الشهرة . وتحدث الناس عنه كأنه اله فى الحرب لا يهزم . وكأنما خشى عمر أن يفتتن الناس به فيعجزوا عن الحرب اذا لم يكن على رأسهم خالد . فقال فى عزله : ان الناس فتنوا به فخفت أن يوكلوا اليه ويبتلوا به فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع .

وكان عزل خالد هو أول أمر أصدره عمر عندما ولى الخلافة ، فلما بلغ أبا عبيدة الامر بتوليه قيادة الجيش وعزل خالد . استحيا « أمين الامة » أن يقرأ خالد الكتاب حتى فتحت دمشق . ولقد استقبله خالد راضيا ، وحارب تحت امرة أبى عبيدة جنديا ، ولم تتأثر نفسه أو يحفظه هذا التصرف على عمر بل قبله ومضى يجالد أعداء الاسلام فى نفس الصرامة والايمان الذى يملأ نفسه .

فاذا عدنا الى حياة خالد الخاصة وجدناه انسانا طموحا يصل من الرجولة الى ذروتها . فهو يحارب مستميتا . فاذا انتهت الحرب أحب الحياة الناعمة وبهجتها .

ولقد أثر عنه كثرة الزواج والاعراس . حتى تكاد تجتمع فى نفسه لذة النصر ولذة العرس . وليس عليه فى هذا ضير فهو فارس كامل

الرجولة حاد العـاطفة ، تزوج فى وادى الوبر بنت مجاعة ، وتزوج فى دومة الجندل ابنة الجودى ، وتزوج فى ميدان القتال فى حرب اليمامة .

وتعرض للمؤاخذة من أبى بكر وعمر لزواجه من امراة مالك بن نويرة بعد قتله ٠ ودعاه الخليفة أبو بكر لمناقشـته ٠ فقدم وعليه قبـاء عليه صدأ الحديد معتجرا بعمامة له قد غرس فيها اسهما فلما ان دخل المسجد قام اليه عمر فانتزع الاسهم من راسه فحطمها . وقال له : قتلت امرأ مسلما ثم نزوت على امراته . والله لأرجمنك بأحجارك . وخالد لا يكلمه . فلما دخل على ابى بكر واعتذر له قبل عذره .

ولقد كانت لخالد عمامة قيل ان الرسول حلق راسه فى احـدى عمراته فاستبق الناس الى شـعره فسبق خالد الى ناصيته فأخـذها واتخذ منها قلنسوة وتبرك بها فى حروبه ٠ وفى مؤتة كسرت فى يده سبعة أسياف فما ثبتت فى يده الا صحيفة يمانية ٠

ولقد تحقق لخالد أن يهزم ثلاثة من كبار محاربى الردة : مسيلمة الكذاب فى اليمامة ٠ وطلحة بن خويلد مدعى النبوة ٠ ومالك بن نويرة ٠

وتوجه الى اطراف العراق ومعـه المثنى بن حارثه الشيبانى . وانتصر على الفـرس واسـتولى على الحيرة والانبـار . ثم الى جموع المسلمين باليرموك ٠

وكان مسير خالد من العراق الى الشام مغـامرة خطيرة لا يقوم بهـا الا قائد قوى العزيمة . لم يقبل خالد اجتيـاز الصحراء من عين التمر الى شمال الشام مع قصر هذا الطريق مخـافة القبـائل الموالية للروم . لذلك قال لاصحـابه « كيف لى بطريق اخرج فيـه من وراء جموع الروم . فانى ان استقبلتها حبستنى عن غيـاث المسلمين » . واجابوه : لاتعرف الا طريقا لايحمل الجيوش وانما يأخذه الفذ الراكب وعزم خالد سلوك هذا الطريق . وقال : ان المعونة تأتى على قدر النية والاجر على قدر الحسبة .

وبعث فجاء برافع بن عميرة الطائى . فقال له : انطلق بالناس . قال رافع : انك لن تطيق ذلك بالخيل والانفال . والله ان الراكب المفرد يخشى فيها على نفسه . انها لخمس ليال لايصاب فيها ماء . وحدق اليـه خالد وقال : لابد والله من ذلك ٠ فمر بأمرك ٠ وكان رافع قـد سمع حديث خالد لاصحابه ورأى اقرارهم اياه . وايقن انه لا مفر من نفاذ أمره ٠ فقال : استكثروا اذن من المـاء ٠ من استطاع أن يصر اذن ناقته على ماء فليفعل ٠ فانها المهالك الا ما دفع الله ٠ وطلب الى خـالد أن يجيئوه بما استطاعوا من ابل سمان . فلما جاءوه بها عمـد اليهـا فظمأها . حتى اذا أجهدها عطشا أوردها الماء عللا بعد نهل . فلمـا امتلأت صر آذانها . وشد مشافرها لئلا تجتر . وانطلق خالد بالجيش وقضوا خمسة أيام يسيرون فى وحشة الصحراء ووحدتها وكل اعتمادهم بعد الله على دليلهم ٠ ينزلون فى كل يوم فيأكل الرجال ويشربون ممـا معهم من الماء . ثم يشقون بطون عدد من هذه الابل . فلمـا كان اليوم الخامس وصل الركب الى غاية الطريق وأدرك خالد وجنوده الرى ٠

وبدأ خالد عمله فى جبهة الشام : لقد قال أبو بكر عندما لقيه ، والله لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد ..

ثم لم يلبث عمر أن ولى الخلافه فعزله عن القيادة . ثم عزله بعد ذلك عن العمل الحربى عامة عندما علم أنه أجاز الاشعث بن قيس بعد أن مدحه بعشرة آلاف درهم . وقد حاسبه عمر بعد ان أمر بأن يعقل بعمامته ويسأل عما اذا كان قد أجاز الاشعث من ماله أم من مال المسلمين . وقد حوسب فى المسجد الجامع واعترف بأنه أجازه من ماله واستقدمه عمر الى المدينة واقتسم معه ماله حتى نعلاه .

وعاد خالد الى حمص فبقى فيها مابقى من حياته ، أمدا لا يقل من اربع سنوات ومات وهو فى سن الخامسة والخمسين . ولم يوجد فى بيته عند موته غير فرسه وسلاحه : وقفه للجهاد . فلما علم عمر بذلك قال : رحم الله أبا سليمان كان على غير ماظنناه به . والله لقد كان سدادا لنحور العدو ميمون النقيبة .

وعندما أوفى عمر على الموت : تمنى لو كان خالد حيا ليعهد اليه أمر الخلافة . ولا شك أن محنة عزل خالد تعطى صورة غاية فى الروعة وهى بطولة أخرى لاتقل عن بطولته الحربية شيئا. فهو الجندى القدير على ضبط النفس الصابر الذى لم يذهله تصرف عمر معه عن واجبه الحق حين لم يستطع أحد أن يفتح له باب الفتنة أو الوقيعة ورضى أن يعيش معزولا وهو يرى ميادين القتال مفتوحة وهو بعيد عنها . لقد حوسب خالد وحوكم وهو فى أوج النصر وعزل وهو يطوف بأحلام خصوم الاسلام ولكنه ظل أيامه كلها لايذكر عمر بسوء ولا يفتح للفتنة بابا .

ولو ترك خالد فى زحفه الرهيب وعلى رأسه قلنسوة النصر التى صنعها من ناصية رسول الله ، وجعلها تميمة ، لوصل الى عاصمة قيصر ، ولفضها على أهلها .

* الشهيد الذى غلبت الفروسية فيه على السياسة .

الحسين بن على

يعد الحسين « قمة » القصة التى بدات قبل ان يلحق الرسول بالرفيق الأعلى . كان ذلك عندما التقى العباس وعلى فأخذا يتساءلان عما لهما فى هذا الامر من شىء . وكان العباس يرى أن يذهبا الى الرسول ليوصى لهما . ورفض على ، وقضى رسول الله ، وبايع الناس أبا بكر وتأخر على قليلا ثم بايع . وتتابعت الايام . ثم جاء عمر وامتد زمن حكمه . ولم يستعمل عليا ، لم يوله ولم يأذن له فى الاشتراك فى الجهاد . ثم جاء عهد عثمان . وبدأت الدولة الاسلامية تأخذ صورة جديدة فيها الغنى والثراء والترف والمال الوفير والقصور والرياش .

وهنا ظهر « أبو ذر » يدعو الى الاشتراكيه الاسلامية . ويمزجها بحب آل البيت . وكانت هذه بذرة التشيع لهم . وقتل عثمان ، واختير على خليفة . وتألب عليه الصحابة فى المدينه فخرج الى البصرة . ورفع معاوية قميص عثمان على المنبر مطالبا بدمه . وانتهى الصراع بين على ومعاوية على غير ما يحب على . فقد خدع أنصاره بالتحكيم . فأوقفوا المعركة . ثم خدعوا بالحكم فيه . فأعدوا لمعركة جديدة . واختلف الأنصار فى « على » نفسه .. وانتهى هذا الصراع بقتل « على » ، وتفرد معاوية بالحكم .

ووقف معاوية ينظر الى أبناء على . وانتهى أمر الحسن بتنازله عن حقه فى الخلافة . وأدخل معاوية نظام توارث الخلافة فبايع ليزيد فى مكة بالقوة والعنف . وظل الى نهاية أجله ينظر الى الحسين على أنه عدوه اللدود . وأوصى به يزيد فيمن أوصى من شباب المسلمين وأبناء الصحابة وآل البيت .

فى هذه البيئة . وعلى هذه الصورة من صور الصراع ، واجه الحسين الحياة . كان فى سن الثلاثين عندما بدات هذه المعركة التى كان مقتله نهايتها . وبداية معركة أخرى .

كان فى تلك السن عندما نفى « عثمان » أبا ذر الى الربذة . وأبو ذر هو النذير الاول بما وقع بعد ذلك من صراع . وعاش فى أتون الحوادث يرى عثمان وأهله وهم يذهبون فى الثراء والترف غايته ، ويرى الصراع بينه وبين الامصار . ويكون احد الواقفين على باب عثمان عندما تجهمت الاحداث وخيف قتله . ثم عاش بعد ذلك فى أيام أبيه . وذهب معه الى الكوفة وشهد الجمل وصفين والنهروان .

ورأى كيف تغلب معاوية على أبيه بالحيلة والخدعة . ثم رأى موقف معاوية من الحسن ثم منه . كل هذا كون عنده الاحساس بالحق الطبيعى الشرعى الذى تحاول الاحداث أن تقضى عليه . فآمن بأنه لابد أن يكون واحدا من اثنين : اما «الفداء» لهذا الحق . وأما «الظفر» به..

وقد تحقق له الامل الاول فكان قتله على هذه الصورة البشعة ، وكان استشهاده على هذه الصورة الرائعة بذرة لثورة ضخمة امتدت جذورها فى المجتمع الاسلامى حتى قوضت النظام الاموى كله .

ولد « الحسين » فى السنة الرابعة للهجرة ، ونشأ فى بيئة النبوة. جده الرسول . وأمه الزهراء . وأبوه على بن ابى طالب وقد سماه الرسول باسمه . وكان يحبه ويحمله ويفرح به . ويقول لأمه ان بكاءه يؤذينى . ويدعوه بابنه ويرعاه فى حنان .

وقد روى أن النبى حمله ذات مرة واطال السجود به . فلما سئل عن سجدته الطويلة ، قال ان ابنى ارتحلنى . فكرهت أن أعجله. وكان الحسين أحسن الناس فى الخلق والخلق . ونشأ وهو يسمع الى جده النبى . وأبيه البليغ القوى . وقد ورث منه حب الفروسية والبطولة كما عرف بالذكاء والشجاعة والوقار .

وقد خالف أخاه «الحسن» فى موقفه من «معاوية» وتسليمه له. واشار بالقتال . ولذلك ظل معاوية يخافه ويهابه . ويحس بأنه صورة من « على » ووصف حلقته بقوله « حلقة » فيها قوم كأن على رءوسهم الطير فتلك حلقة أبى عبد الله مؤتزرا الى أنصاف ساقيه » .

وكان يعرف بالبلاغة والشعر ورصانة العبارة والفقه . وكان يطاوع الاعراب الشعر . ويناقلهم الادب والشذور .

وكان وفيا كثير العطف والاشفاق « اذا وصلته الهدايا بدأ بأيتام من قتل مع أبيه فى صفين ، فاذا بقى شيء نحر به الجزر وسقى به اللبن » .

وقد عرف فى الحرب بالشجاعة الفائقة . وله مواقف مشهودة فى أفريقيا الشمالية وطبرستان والقسطنطينية . وشهرة واسعة فى المصارعة وركوب الخيل والعدو . وعرف بالعاطفة المحبة للجمال . وبالنفس الراغبة فى الفكاهة والتبسط . وكان يضحك لفكاهات أشعب. ولكن ذلك لم يصرفه عن طبيعته المتدينة الاصيلة . فكان يصلى فيطيل السجود . وكان الى ذلك صواما قواما .

كان الحسين فى جمعه بين الفروسية والادب رمزا للرجولة الكاملة. هذا الى أنسه بالزهور والعطور حتى أثر عنه انه أعتق جارية حملت اليه ذات صباح طاقة من الريحان .

وكان الى ذلك كيسا لبقا « تغلب فيه الفروسية على السياسة » كعلى فهو يؤمن بقوته على مواجهة الخصم بحد السيف . ولكنه لا يرى مواجهته بالخديعة والمكر والدهاء .

وللحسين موقفان قبل موقفه الاخير : موقفه من معاوية حين أراد أن يبايع ليزيد فى المدينه فقد عارضه فى ذلك • وأنكر عليه • وحاول معاوية أن يستميله فلم يصل الى ما يريد . فدخل على عائشة فشكاه وبعض الصحابة اليها . وهددهم بقتلهم ان لم يجيبوه الى بيعة يزيد . فلما اجتمع بالحسن وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن عمر قال : فانى قد أحببت أن أتقدم اليكم انه قد أعذر من أنذر • وانى كنت أخطب فيقوم الى القائم منكم فيكذبنى على رءوس الناس فأحمل ذلك ، وأصفح. وانى قائم بمقالة فأقسم بالله لئن رد على احدكم كلمة فى مقالى هذا لا ترجع اليكم كلمة غيرها حتى يسبقها السيف الى راسه . فلا يبقين رجل الا على نفسه . ثم دعا صاحب حرسه فقال : اقم على رأس كل رجل من هؤلاء رجلين . ومع كل واحد سيف . فان ذهب رجل منهم يرد على كلمة بتصديق أو تكذيب فليضرباه بسيفهما .

وعندما مات معاوية ، وولى يزيد . واريد له ان يبايع رفض ذلك فى أسلوب من الحيلة حين قال لعامل يزيد : ان مثلى لا يبايع سرا فاذا خرجت الى النـــاس ، ودعوتهم للبيعة ، ودعوتنـــا معهم كان الأمر واحدا . ثم قصد الى مكة . وقد ظل الحسين وفيا لمعاوية بعد وفاة أخيه الحسن الذى عاهده على المسالمة ورفض أن يستمع لأصحابه الذين حرضوه على خلع معاوية .

وبعد : فسيظل الحسين علما على قصة « الاستشهاد » فى تاريخ الاسلام كله فما من شهيد الا وهو صـورة من الاسوة الصـادقة التى رسمها الحسين . أسوة الاستشهاد فى سبيل الايمان بالحق دون مبالاة لأية عاقبة من العواقب التى يباليها الساسة وأصحاب المناورات •

لقد مات الحسين فى سبيل الفكرة . فى سبيل الحق الذى اعتقد. فقد كان أحق الناس بالخلافة ، بعد ما كادت معالمها تنهار على يد القائم بها والمحيطين به .

ولقد أحس الناس فى الأمصار انه أهل لها ، فدعوه . فكان لابد أن يلبى دعوة الرأى العام . وأن يؤدى حق الاسلام المنوط به . كألمع رجل فى الدولة الاسلامية اذ ذاك .

غير أن الاقدار أرادت غير ما أراد الناس • وغير ما أراد الحسين • وتغلب السلطان الظالم على الحق الزاحف الذى قضى عليه قبل أن يصل الى مداه .

وفكر الحسين وتروى . والناس يسألونه الاسراع اليهم . وهو يكثر المشاورة ويطيل الخلوة الى ابن الزبير وابن عباس . ثم راى ان عليه أن ينهض لدفع الظلم . واراد ان يستوثق فأرسل رسولا من أصدق رجاله يخبر الناس بأمره . ويخبره بأمرهم فبعث مع الوافدين : ابن عمه مسلم بن عقيـل . واتى مسلم الكوفة . واخذ بيعة النـاس وعهودهم وايمانهم للحسين .

وكان من أتباعه نحو من عشرين ألفا من وجوه النـاس وأعيـانهم

ونحو مائة ألف من المقاتلين والقادرين على الجهاد وكتب بذلك للحسين. فنهض بآله وقومه يريد الكوفة. وكان اذ ذاك فى سن السابعة والخمسين، غير أن الموقف تحول فى خلال فترة سفر الحسين . لقد قطع الصحراء من مكة الى الكوفة فى شهر كامل كانت الاحداث قد غيرت كل شيء فقتل مسلم بن عقيل وتفرق أعوانه وسيطر عبيد الله بن زياد على الموقف فسجن من سجن وقتل من قتل وأرسل رأس عقيل الى زياد فى دمشق ..

ومهما يكن القول فى أن الخطة لم تكن مرسومة على وجه دقيق او أن الانصار لم يكونوا على عهد استعداد وتضحية . أو أن القوى لم تكن قد هيئت لحماية الامام الجديد ، فذلك كله لا يغنى عن أن الحسين قد دعى ، بوصفه أحق أهل عصره بأمر الناس ، وأن الناس (وهم الأمة) هم الذين دعوه . وهم المرجع فى أمر الحاكم الصالح . وأنه استجاب ثقة بنفسه وغيرة على حقوق الله وتلبية لرجاء الناس .

فلما وصل الى مكانه الموعود كان الامر قد تطور أو تحول على غير ما يبتغى . فواجه الموقف فى رجولة واستبسال . واستشهد وهو يدافع عن نفسه وعرضه والحق الذى يؤمن به .

وقتل الحسين بيد العصبة الغادرة . وقتل بعض أهل بيته وحمل البعض الآخر الى الشام . ولكن مقتله الرهيب ظل أحدوثة الدنيا ، وكان له أبعد الاثر فى أصحابه الذين تفرقوا عنه ولم يناصروه .

وبات الحسين الليلة الاخيرة وهو يعرف ان خصومه قد أعدوا عدتهم لسحقه والخلاص منه فأذن لاصحابه أن يتفرقوا تحت جنح الظلام . وتلك غاية الخلق ، ولكنهم ابوا الا أن يموتوا دونه .

وكان قد خرج فى الثامن من ذى الحجة على أثر عزمه وتصميمه. لم يكن يعلم أن مسلم بن عقيل رسوله الى اهل الكوفة قد قتل يوم وصوله . ولم يستمع الى راى عبد الله بن عباس الذى اظهر له تخوفه من هذا الوجه وقال له : ان أهل العراق قوم غدر . وخير لك أن تقيم فأنت سيد أهل الحجاز ، وان ابيت فسر الى اليمن فان لابيك بها شيعة ..

ولكن الحسين أصر . كأنما يريد القدر المرصود الذى لا مفر منه. اراد ان يصل الى الحق المنكور . أو يكون الدم الذى يكتب صفحة الفداء . قدم نفسه ضحية ، فكان مداد معارك ، ووقود افكار ، ولهيب نيران تأججت فلم تخب الا بعد ان اتت على دولة امية وقوضت بنيانها.

ظهر التوابون بعد استشهاده فأخذوا بثأره ونكلوا بمن قتله . وامتدت ثارات الحسين الى قواعد الظلم فأخذت تحطمها واحدة بعد أخرى .

* اني لم أحذركم أمرا أنا عنه بنجوة . وانما أبدأ بنفسي .

طارق بن زياد

تاريخ قصير لشخصية ضخمة . لا يزيد فى كتب التاريخ عن موقعة فى فتح الاندلس ثم يصمت التاريخ بعد ذلك فلا يقول لنا أين ذهب طارق وكيف مضى مع الحياة أو مضت به .

انه واحد من شباب شمال افريقية ، وابناء هذه المنطقة الحية . من أبنائها الاصليين « البربر » نشأ وشب فتطلع الى غزوات العرب لبلاده باسم الاسلام فاتجه بطبيعته الى العمل . وكان موسى بن نصير قد ورد افريقية سنة ثمان وسبعين واليا . وهو الذى اكتشف طارقا فلم يزل يقاتل البربر ويفتح مدائنهم حتى بلغ طنجة وهى قصبة المغرب فافتضها واختط القيروان .

ثم سار موسى يريد مدائن شط البحر وفيها عمال صاحب الاندلس . وكانت وجهته «سبتة» هنالك بدات قصة الاندلس على الصورة التى رسمتها كتب التاريخ .

لذريق والى الاندلس يسىء الى يليان فيبعث يليان الى موسى بالطاعة . وهو الذى دعاه الى فتح الاندلس . وموسى يبدأ بالسرايا فيرسل طريفا الذى أغار على الجزيرة وأصاب منها مالا جسيما . هنالك اختار موسى طارقا الذى تصفه كتب التاريخ بأنه فارس « همذانى » فى سبعة آلاف من المسلمين جلهم من البربر . هنالك واجه طارق مائة ألف قادهم الملك لمقاومته وزاد موسى لطارق رجاله خمسة آلاف ، وعبر طارق ، واقتحم جيوش الاندلس فانتصر ومضى الى غاية الشوط . ثم لحق به موسى الذى دخل الاندلس غازيا من طرف آخر . وتحقق للعرب السيادة على الاندلس فى فترة قصيرة . وكان ذلك عام ثلاث وتسعين هجرية .

هنالك تتوقف قصة طارق : هذا الفتى المنسوب الى قبيلة نفرة البربرية التى أسلمت . والتى كان طارق أحب فتيانها الى قلب موسى ابن نصير لما عرف عنه من شهامة وبطولة وحماسة ، روت كتب التاريخ فصولها فى معارك فتح الاندلس والذى كان قد ولاه موسى حاكما على طنجه ثم دفعه الى حرب المملكة القوطية وسحقها .

لقد استطاع طارق أن يواجه بجيشه القليل هذا العدد الضخم من جيش القوط . ومع ذلك انتصر على الرغم من انه يقتحم بلادا

جديدة وغريبة عنه فضلا عن أن منطقة وادى لكه التى دارت فيها المعركة الكبرى الاولى منطقة وعرة المسالك معظمها هضاب وجبال وتلال متصلة. وقد التحم الجيشان فى معركة استمرت سبعة أيام بذل فيها طارق ورجاله صنوفا من البطولة والكفاية والجلد وانتهت بالنصر المبين لطارق وجيشه وهزيمة القوط واندحارهم وتراجعهم أمام الزحف حتى غرق ملكهم «لذريق» فى النهر .

واندفع طارق فى الفتح قويا قد أمده النصر بعزيمة صادقة فى نفس الوقت الذى ملأ قلوب أعدائه الرعب فتفرقوا ، واتجه الى طليطلة عاصمة القوط فاستولى عليها ثم تابع زحفه شمالا .

هنالك تبين موسى أن الامر فى غاية الخطر والاهمية . فأرسل الى طارق يطلب اليه التوقف وعبر هو بجيش آخر وافتتح عدة مدن وفى مقدمتها اشبيلية والتقيا قرب طليطلة . ولعل موسى قد أساء الى طارق وزجه فى السجن ثم عفا عنه . ومضيا معا يشتركان فى اتمام فتح شبه الجزيرة . وما أن أتما الفتح حتى دعا الوليد موسى وطارقا الى العودة الى دمشق فعادا ، حيث توفى الوليد وخلفه سليمان الذى لقى موسى على يديه كثيرا من المتاعب .

أما طارق فقد اتجه رأى الوليد الى توليته حكم الاندلس ، غير أنه انصرف عن ذلك عندما علم مدى ما يتمتع به من هيبة ونفوذ خشى معهما أن يستقل طارق بهذا الاقليم .

وتسترعى نظرى فى شخصية طارق هذه العزيمة التى وصفت بأنه أحرق المراكب بعد أن جاز المضيق ووقف بين جنده يقول : أين المفر ؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم وليس لكم والله الا الصدق والصبر.

ومهما يكن من مدى صحة هذه القصة ، فانها تعطى صورة لعزيمة طارق الجبارة . هذا البربرى ــ ولا أقول الاسود فلم يكن البرابرة سودا ــ الذى فتحت له أبواب المجد حين وكل اليه موسى أمر الجيش الذى جهزه من العرب والبربر فى بضعة آلاف من المقاتلين . ووقف على الأرض الجديدة وقد شغفه أن يخترقها ، وان يكتب للاسلام فيها صفحة من صفحات المجد والنصر . فدفع جنوده واندفع معهم يقاتل فى قوة على نحو الصورة التى نسبت اليه « انى لم احذركم امرا أنا عنه بنجوة . ولا احملكم على خطة أرخص متاع فيها النفوس . وانما أبدأ بنفسى . وانى عند ملتقى الجمعين حامل بنفسى على طاغية القوم (لذريق) فقاتله ان شاء الله فاحملوا معى فان هلكت بعده فقد كفيتكم أمره ولن يعوزكم بطل عاقل تسندون أموركم اليه . وان هلكت قبل وصولى اليه فاخلفونى فى عزيمتى هذه واحملوا بأنفسكم عليه » . هذه المعانى أيا كان مدى صدق روايتها فانها تدل على نفسية طارق وتعطى صورة عنه وعن أسلوبه فى الحرب . فهو يؤمن بأنه لا بد من سحق قائد العدو أولا . فاذا تحقق له ذلك فقد انقضى الأمر . وقد فعل طارق هذا ، ونجح وتوغل . ومضى يفتح البلاد فى قوة حتى أوقفه موسى فلم يتوقف . وكيف يقف فى مثل هذا الموقف الخطير ؟

ولقد أثبت طارق بطولة فذة ، فقد استطاع ان يشق طريقه الى قلب هذه القارة الجديدة فى قوة . وأن يجاهد جهادا ضخما فى سبيل اكتساب أرض جديدة • ولم يكتف طارق بقواته فى أثناء زحفه بل طلب مددا جديدا وكانت معارك ضخمة بلغت قوات العدو فيها الوفا مضاعفة. قابلها طارق بجنوده الاثنى عشر الفا ، ومع ذلك فقد انتصر .

وتبدو أمامى صورة طارق هذا المسلم الفاتح الذى عبر من افريقيا والذى عاشت فى أعماقه صورة الفتوح الاسلامية وهى تراوح المغرب وتعاوده حتى استقرت فيه وصنعت هذا الصنف الحازم الحاسم ذا الشكيمة من البرابرة الذين كانوا من أصلب الناس واشدهم تعصبا لما يؤمنون به .

ولم يعرف عن طارق أكثر من أنه محارب معصوم من الشهوات والمطامع الفردية . لم تغره مظاهر الحياة البراقة فى الاندلس . ولم تفتنه صور الجمال . فقد دخل الاندلس على اثر قصة اغتصاب لذريق ابنة الكونت يوليان حاكم سبتة « الحسناء فلوريدا » ولكن هذا لم يكن فى حسابه مطلقا . فقد مضى يفتح بقوة . وجعل نفسه فى مقدمة جنوده. وأحب أن يموت فى سبيل كسب النصر .

وتم الفتح .. وعاد طارق الى دمشق ..

ثم توقف تاريخه عند هذا الحد فلم يسجل له شيئا .

ماذا كان مصيره بعد الفتح ؟ كيف عاش ؟ كيف مات ؟ هذا ما لم تسجله صحف التاريخ وان روى أنه توفى عام ١٠٢ هـ .

*** المجاهد الذى لا ينصرف عن الصين حتى يأسر ملوكها ويطأ أرضها ويأخذ الجزية .**

قتيبة بن مسلم

ولاه « الحجاج » خراسان عام ٨٦ هـ . ولكنه لم يكن واليا بقدر ما كان محاربا بعيد الطموح راغبا فى الغزو ، ملىء النفس بالامل فى الجهاد. وقد خرج الى بلخ فاستقبله دهاقينها وعظماؤها ثم عبر النهر فقابله ملك الصفانيان وأهداه كثيرا من الهدايا وسلم اليه بلاده .

ثم غزا بيكند ـ بين بخارى وجيحون ـ واغار على الصفد وقاتلهم قتالا شديدا فانهزموا وتفرقوا ثم طلبوا الصلح ، ولكنهم لم يلبثوا أن انفضوا ، فرجع اليهم قتيبة وفتح المدينة عنوة .

ثم لم يلبث أن واصل فتوحه فى بلاد كرمينيه (بين سمرقند وبخارى) ثم سار الى بخارى فافتضها على من فيها .

ثم اتجه الى مدائن خوارزم فاستسلمت له . ثم غزا سمرقند ففتحها بعد قتال شديد . وعاد الى فرغانه وسار حتى بلغ (خجنده) على نهر سيحون فاشتبك مع أهلها فى حرب طاحنة انتهت بانتصاره . ثم اتجه الى كاشان ففتحها .

وقد تم له ذلك فى خلال سبع سنوات استطاع خلالها أن يوغل فى اقليم ما وراء النهر غير انه فى عام ٩٦ بدأ يتجه الى حدود الصين على راس جيش كثيف .

ولما وصل قتيبة الى سمرقند وجد كثيرا من الاصنام فأحرقها وكان أصحابها يعتقدون أن من يمسها أو يعتدى عليها يموت لساعته ، وقد اعتنق الاسلام كثير من عبدتها .

ان قتيبة هو أحد هذه المنارات السامقة فى تاريخ نهضة العرب وعظمة الاسلام . هؤلاء الذين كان كل منهم علامة على مرحلة من مراحل الطريق الطويل فى سبيل المجد وعنوان صفحة من صفحات المجد الاثيل.

واذا كان عقبة بن نافع قد اندفع فى قلب افريقيا حتى وصل المحيط ودفع حوافر فرسه فى الماء . واذا كان محمد الفاتح قد فض القسطنطينية ، واذا كان طارق قد عبر البحر واحرق مراكبه ، فان قتيبة بن مسلم بلغ غاية ما بلغ فاتح . وصل الى الصين .

وكما يقف خالد وصلاح الدين وسعد بن ابى وقاص والظاهر

بيبرس ، يقف كل منهم على رأس طريق . كذلك يقف قتيبة على راس الطريق الضخم : طريق العربى المغامر الذى اندفع من مزارع الزيتون فى الشام حتى وصل حدود الصين . فوطأ أرضها وقهر ملوكها وحمل منها الجزية الى خليفة المسلمين .

ولولا أنه من المجاهدين الذين وهبوا أنفسهم للفداء لما اندفع مؤمنا بالظفر أو الشهادة . ولما قطع هذا الطريق الطويل يفتح المدن ويفض الحصون ويزلزل القلوب ويذل الاعداء .

وقد وقع له هذا كله قبل أن ينتهى القرن الاول الهجرى ، وفى خلال الصراع بين الخلفاء وفى الفترة التى استحر فيها الخلاف حول الحكم والسلطان . لم يحل هذا بينه وبين الاندفاع فى الارض لرفع راية الاسلام .

كانت أمنية الجهاد تملأ روحه ، فما ان ولاه الحجاج خراسان حتى بدأ يتطلع الى الفتح فخرج الى بلخ ثم بدأ اغاراته . والجيوش تفر من وجهه والملوك تخرج لاستقباله والبلاد تفتح صدرها له . فاذا أعجزه شىء دفع بقواته فانتصر وكله ثقة فى قوته وايمانه .

وظل يقطع الطريق فى قلب آسيا متجها الى الصين . وبعث اليه خليفة المسلمين يشجعه على المضى فى طريقه ويحثه ليرفع اعلام الاسلام فى كل مكان يحل فيه : « أتمم مغازيك وانتظر ثواب الله » .

فسار الى حدود الصين على رأس جيش كثيف . فلما علم بوفاة الوليد بن عبد الملك لم يتراجع ، بل واصل طريقه حتى اقترب من الصين . هنالك أرسل الى ملكها وفدا برئاسة هبيرة بن المشمرج الكلابى . وبعد أن دارت بينه وبين مندوبى الصين مراسلات قال ملك الصين موجها كلامه اليهم « انصرفوا الى صاحبكم فقولوا له ينصرف . فانى أعرف حرصه وقلة أصحابه . والا أبعث عليكم من يهلككم ويهلكه . فقال له هبيرة : كيف يكون قليل الاصحاب من اول خيله فى بلادك وآخرها فى منابت الزيتون ؟ وكيف يكون حريصا من خلف الدنيا وغزاك ؟ وأما تخويفك ايانا بالقتل فان لنا آجالا اذا حضرت فأكرمها القتل فلسنا نكرهه ولا نخافه » فأجابه ملك الصين «فما الذى يرضى صاحبك ؟ »

قال هبيرة « انه قد حلف الا ينصرف حتى يطأ أرضكم ويختم ملوككم ويأخذ الجزية » . فقال الملك « فانا نخرجه من يمينه . نبعث اليه بتراب من تراب أرضنا فيطؤه ونبعث ببعض أبنائنا فيختمهم . ونبعث اليه بجزية يرضاها » .

ثم دعا بصحاف من ذهب فيها تراب وبعث بحرير وذهب وأربعة غلمان من أبناء ملوكهم . ثم اجاز الوفد فساروا حتى قدموا على قتيبة فقبل الجزية وختم الغلمان وردهم ووطىء التراب ثم عاد الى مرو .

ولكن قتيبة كان ضحية الخلاف الحزبى فى دمشق . فقد عزله

سليمان عندما ولى الخلافة وعذبه وقتله بحجة أنه من رجال الحجاج ومن الذين وافقوا الوليد على عزله من ولاية العهد .

ولكن اسم « قتيبة » ظل خالدا فى تاريخ الاسلام واعلامه . استمرت ولايته ثلاث عشرة سنة . وكان عظيم المكانة مرهوب الجانب . دمث الاخلاق . طويل الروية . قال أحد الاعاجم بعد مقتله : يامعشر العرب قتلتم قتيبة ووالله لو كان فينا لجعلناه فى تابوت واستفتحنا به غزونا .

وتوفى عام ٩٦ هـ ويطلق عليه قتيبة بن مسلم بن عمرو بن الحصين الباهلى .

* واحد من فرسان الأساطير .

عقبة بن نافع

« .. يارب لولا هذا البحر المحيط لمضيت فى البلاد الى ملك ذى القرنين مدافعا عن دينك ومقاتلا من كفر بك وعبد غيرك » .

قال ذلك عقبه بن نافع وهو يدفع حوافر فرسه فى البحر حتى كاد يغمره وهو يتطلع الى المحيط باتساعه ولا نهائيته ..

كانت هذه هى اللحظة الرهيبة فى حياته بعد أن عاش عمره كله يتطلع الى هذه اللحظة وينتظرها وهو مندفع من مصر مخترقا ليبيا وتونس والجزائر ومراكش .

* * *

انه واحد من أولئك الفاتحين العرب الذين عاشوا فى معترك الاحداث ، كان أبوه نافع بن القيس فاتحا ذا شأن ملحوظ . اتصل نسبه بعمرو بن العاص الذى وجهه أميرا على برقة (٤٢ هـ) فلم يلبث ان اندفع ومعه عدد من الفرسان فافتتح كثيرا من تخوم السودان وكورها حتى وصل الى موقع القيروان فأنشأها .. (٤٩ ـ ٥٥ هـ) . ثم لم يلبث أن عزل من منصبه وأمر أبو المهاجر بالاساءة اليه والنيل منه وإعفاء آثاره . فأخذ عقبة بالمهانة السيئة والسجن الشديد ، فامتلأت نفس عقبة بالسخط ولما علم معاوية ذلك ساءه وأمر بتخلية سبيله واشخاصه اليه فاتجه الى دمشق حيث لقى معاوية ثم عاد الى افريقية حيث اعتكف سبعة أعوام يترقب الاحداث وينتظر اليوم الذى يتحقق فيه أمله فيعاود الفتح والغزو .

وقد تحقق له ذلك عام ٦١ هجرية بعد وفاة معاوية وولاية يزيد.

وقد وصف بالايمان والصبر فقد اعتزل طويلا حتى تحول على مدى الايام الى شخصية حربية صوفية لا تهدف الى غير الجهاد فى سبيل الله .

وما أن ولى مرة أخرى حتى عاد الى القيروان يصلحها ويجدد بناءها ويكمل تشييدها ولم يلبث أن اتجه الى الغزو فمضى الى السوس الادنى (خلف طنجة) ثم أفضى الى الزاب ورحل الى تاهرت وانحدر الى السهل الساحلى حتى انتهى الى طنجة . واجتاز الممر الضيق المحصور بين هضبة الريف وجبال الاطلس الوسطى حيث جنب نفسه مشقة المرور بالساحل الملىء بالمدائن الحصينة وظل منطلقا حتى وصل

الى السوس الاقصى فقاتل جمعا عظيما من البربر وسبى منهـا سبيا كبيرا وسار حتى بلغ البحر المحيط . وبهذا يكون عقبة بن نافع قد سار فى السهل الساحلى الشمالى ثم اتجه شمالا حتى أشرف على البحر الابيض ثم لم يلبث ان أشرف على المحيط الاطلسى بجنـده . وأوقف فرسه فى مياهه وأسف لعجزه عن اجتيازه ، ثم عاد بعد ذلك أدراجه الى القيروان دون أن يترك بأى ناحية مر بها اثرا يذكر .

وقد ظلت شخصية عقبة بعيدة الاثر فى أهل هذه النواحى وعاشت ذكراه عالقة بأذهانهم حتى أيام موسى بن نصير .

* * *

ان شخصية عقبة بن نافع تعطى صورة فرسان الاسـاطير . فى اندفاعه نحو الفتح . وفى ايمانه بالجهاد ، فقد صمم على اكتساح أفريقية حتى يصل الى المحيط الاطلسى . وظلت الامنية فى نفسه فكرة تتجدد على مر السنين منذ وطئت أقدامه أرض المغرب فى عهد عمرو بن العاص ولكنه ما كاد يتأهب للخروج الى الغزو حتى عزله أبو المهاجر فبقى سبع سنوات فى المغرب ينتظر الفرصة المواتية .

وكانت هذه السنوات قد أتاحت له فرصة واسعة للدرس والبحث ومكنته من تكوين فكرة واضحة عن البلاد بعد أن اتصل بأهلها وعرف أخلاقهم وتنقل بين ربوع البلاد ودرس مسالكها .

وقد كان عقبة محبـا للفتح . يصرف قلبه الى الجهاد ويكاد يقف نفسه على الغزو حتى انه انصرف عن الفتنة السياسية التى ألمت بالمسلمين عشر سنين ولم يجعل فى نفسه غاية أعظم من الفتح والوصول الى ساحل المحيط .

وأضاف عقبة الى ايمانه هذا وطبيعته الدينية المتجردة فهم الاساليب الحربية ودروب البلاد وأماكن الغزو . واستطاع أن يصل الى قواعـد ثابتة فى هذا الاتجاه فى مقدمتها بناء مدينة للجند يسكنونها ويتحركون منها الى الفتح ثم يعودون . والتوغل فى البلاد . وغزو البربر دون الاكتفاء بغزو مدن الساحل ونهبها والعودة بالغنيمة . ولذلك فانه ما كاد يلى أمر الفتح حتى اتجه الى بناء القيروان ، واسكانها للجند وفتح بعض واحات الصحراء .

ويعطى هذا صورة الرجل البناء الذى يرسم خطة الاستقرار . ومضى فى عشرة آلاف من المجاهدين يزحف وجموع البربر ترده ولكنه استطاع أن يخترق الصحراء ويدك الحصون والقلاع .

لقد آمن عقبة بالنصر وقد تحقق له أن يقف على شاطىء طنجة فى تجاه اسبانيا ويقول كلمته الخالدة .

وعاد عقبة وقد ارتاحت نفسه ، وامتلأ قلبه بشعور جياش بالغبطة على أن أتم الله له نعمة ارتياد المغرب كله غازيا فى سبيل الله .

وهكذا تتجلى شخصية عقبة المؤمنة بالجهاد الذى وهب نفسه للحظة الخالدة والغاية العليا ·

وقد أخذ عليه أنه لم يكن يرسم خطة حربية منظمة · وانه كان يندفع فى طريقه لا يهدف الا الى جهاد يحارب فيه الروم ويستولى على ما بيدهم من أرض ، ويسحق جموعهم · ولكنه لم يكن يترك حاميات كافية فى البلاد المفتوحة · ولذلك كانت لا تلبث أن تنتفض مرة أخرى · وأخذ عليه أنه انتقم من أبى المهاجر وحمله معه فى أسفاره مقيدا بالحديد انتقاما منه وزيادة فى تعذيبه ·

وقد كان أولى به وهو الرجل الذى وهب نفسه لله أن يرتفع عن الانتقام · ويعطينا عقبة بن نافع صورة المجاهد لا صورة الفاتح · المجاهد الذى ألقت اليه الظروف أن يصل الى افريقيا فيعيش فيها ويتمنى أن يقطعها بالعرض فيتحقق له ذلك ويصل الى المحيط · ويشعر عندئذ أنه أعذر الى الله فى التوقف عن الفتح حيث حال دونه العباب الضخم الذى لا تصل العين الى نهايته ·

وقد تحققت له الشهادة فانه لقى قوما من الافرنج فى عودته وكان فى عدد قليل من جنوده فأطبقوا عليه فجالدهم حتى استشهد ·

*** لكل أمة أمين . وأمين هذه الامة أبو عبيدة .**

أبو عبيدة بن الجراح

(عامر بن عبد الله)

روى ان عمر حين دخل الشام قال لأبي عبيدة : اذهب بنـــا الى منزلك . قال ما تريد أن تعصر عينك علي . قالوا : فدخل منزله فلم ير شيئا . قال : أين متاعك ؟ لا أرى الا لبدة وصحفة وشنا . وأنت أمير أعندك طعام ؟ فقام أبو عبيدة الى جونة فاخذ منها كسيرات فبكى عمر . فقال له أبو عبيدة : لقـــد قلت لك : انك ستعصر عينك على بكفيك ما بلغك المقيل .

قال عمر : غيرتنا الدنيا كلنا غيرك يا أبا عبيدة .

وقد وصفه الرسول بقوله : لكل أمة أمين ، وأمين هـــذه الأمة أبو عبيدة . وقد كان واحدا من خمسة عشر أحاطوا بالرســـول وفدوه بأنفسهم يوم العدوان في أحد . ثم لم يلبث أن يدر الى الرسول فأخذ ثنية حلقة المغفر فنزعها بعد أن عالجها مرارا وسقط على الارض فسقطت ثنيتاه .

وقد كان أبو عبيدة طويلا نحيفا معروق الوجه خفيف اللحية أهتم. وكان يصبغ لحيته بالحناء والكتم .

قال عمر : ثلاثة من قريش أصبح الناس وجوها وأحسنها أحلاما وأثبتها جنانا . ان حدثوك لم يكذبوك وان حدثتهم لم يكذبوك : أبو بكر وعثمان وأبو عبيده .

لما ولي عمر الخلافة عزل خالدا عن امارة الجيش وولى أبا عبيدة وبعث له ، فكتم أبو عبيدة الخبر عن خالد عشرين ليلة . فقد كان خالد يقود معركة دمشق وآثر أبو عبيدة أن يخفى عنه حتى يتم الفتح . حتى علم منه خالد بالامر فاتجه اليه وفاتحه فيه . وقال له : يغفـــر الله لك . جاءك كتاب أمير المؤمنين فلم تعلمني . وأنت تصلي خلفي والسلطان سلطانك: قال أبو عبيدة : ما سلطان الدنيا أريد ، وما للدنيا أعمـل وان ما ترى سيصير الى زوال . وعندما بعثه الرسول مع عمر بن الخطاب في غزوة السلاسل . نحاه عمر عن الصلاة وهو الامير . فقال له : ان رسول الله أوصى أن نتطاوع فوالله لان عصيتني لأطيعنك .

وعندما فشا طاعون عمواس في الجنـــود في الشام أراد عمر أن

يستقدمه معه فبعث اليه يقول : انه قد عرضت لى اليك حاجة أريد أن أشافهك فيها فعزمت عليك اذا نظرت فى هذا الكتاب ألا تضعه من يدك حتى تقبل الى ٠

ونظر أبو عبيده في الكتاب وابتسم وقال : ان أمير المؤمنين يريد أن يستبقى ما ليس بباق ٠ ولم يلبث أن كتب له :

يا أمير المؤمنين انى قد عرفت حاجتك الى وانى فى جند من المسلمين لا أجد بنفسى رغبة عنهم ٠ فلن أريد فراقهم حتى يقضى الله فى وفيهم أمره ٠ فحللنى من عزمتك يا أمير المؤمنين ودعنى فى جندى ٠

ولما أحس بدنو أجله : قال اقرئوا أمير المؤمنين السلام وأعلموه بأنه لم يبق من أمانتى شىء الا وقد قمت وأديته ٠

هذه ملامح من صورة « أبى عبيدة » تعطى مفتاح شخصيته ٠

وليس أروع تصويرا لشخصيته من عبارة رسول الله عندما قدم وفد نجران على النبى ٠ قالوا : يا محمد ابعث لنا من يأخذ الحق ويعطينا

قال : والذى بعثنى بالحق لأرسلن معكم القوى الأمين ٠ وردّدها ثلاثا ٠ ثم قال : قم يا أبا عبيدة ٠ ان لكل أمة أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة هكذا كان الرسول يصور أبا عبيدة ويضعه بين أصحابه ٠

روى أبو بكر الصديق ٠ قال : خرج رسو الله ونحن نتحدث فسكتنا ٠ فظننا اننا كنا فى شىء كرهنا أن يسمعه ٠ فسكت ساعة لا يتكلم ٠ ثم قال : ما من أصحابى الا وقد كنت قائلا فيه لا بد : الا أبا عبيدة ٠

وتاريخ أبى عبيدة فى الاسلام يعطى صورة رائعة لهذا الرجل الذى كان موضع ثقة رسول الله وتقديره ٠ فقد كان من صفوة المهاجرين الى الحبشة والذين اشتركوا فى بدر وأحد ٠ وحمل راية الرسول يوم فتح مكة ٠ وثالث ثلاثة يوم السقيفة ٠ وهو الذى قتل أباه يوم بدر حيث كان فى صفوف المشركين اذ تصدى عبد الله الجراح لابنه أبى عبيدة ٠ فأعرض عنه أبو عبيدة ٠ فتصدى له بعد ذلك مرات واندفع فى الرابعة يضربه بالسيف ٠ فقتل أبو عبيده أباه ٠ وكان هذا أروع صور الايمان بالدين الجديد أن يقتل الابن أباه فى سبيل العقيدة ٠ وقد نزلت الآية « لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ٠ ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو اخوانهم أو عشيرتهم ٠ أولئك كتب فى قلوبهم الايمان وأيدهم بروح منه » ٠

وثبت « أبو عبيدة » حول النبى فى أحد ٠ فقاتل عن يمينه وعن شماله ٠ ويوم السقيفة قدمه عمر بن الخطاب وقال له : امدد يدك أبايعك فأنت على رسول الله أمين هذه الأمة ٠

فانبرى له يقول : أتبايعنى وفيكم ثانى اثنين ؟ أتبايعنى وفيكم الصديق ؟

فلما تكلم مدح الانصار وذكر فضلهم ٠ فلانت نفوسهم وكان ذلك عاملا من عوامل كسب الموقف ٠

ولما فتح حمص أخذ أهلها بالرأفة والرحمة · فلما جلا عنها أعاد الى أهلها الحرية · وقال يا أهل حمص : قد شغلنا عن نصرتكم والدفاع عنكم فأنتم على أمركم ولا حاجة لنا فى أموالكم ·

ولما ولى أبو بكر خالدا قتال العدو : قال لأبى عبيدة « قد وليت خالدا قتال العدو فى الشام فلا تخالفه واسمع له وأطع فانى وليته عليك · وأنا أعلم أنك خير منه · ولكنى ظننت أن له فطنة فى الحرب ليست لك »

فلما توفى أبو بكر أعاده عمر وولاه القيادة العامة وعزل خالدا عنها وأقام أبو عبيدة فى الشام يؤسس الحياة ويبنى المجتمع ويضع روحه القويه فى الانشاء · وله من طابعه النفسى فى الزهد والتقشف والترفع عن الدنايا ما يوجهه الى الخير · وقد ظل بين جنده الذى يحبه حتى جاء طاعون عمواس · وبدا يتفشى فى الجند وعلم عمر بالامر فأراد أن يحتال ليرده الى الحجاز فتنبه لرغبة عمر واعتذر عنها ·

وجاء عمر يزوره ويطلب اليه أن يعود معه فروى له حديث رسول الله عن الوباء · وانه اذا كان فى أرض فلا تدخلوها · ولا تخرجوا منها اذا كنتم بها · وعاد عمر وهو يبكى ويودعه الوداع الاخير · فلما مات لم يجدوا انه يملك من حطام الدنيا غير ترسه ودابته وسيفه وكان يردد دائما حين يسأل عما لو اتخذ متاعا · بأن ذلك سيبلغه الغاية ·

ولما أدركت الوفاة عمر بعد أن طعنه أبو لؤلؤة المجوسى هتف فى سكراته يقول : لو أدركت أبا عبيدة لاستخلفته ، وما شاورت · فاذا سألنى الله عنه قلت استخلفت أمين الله وأمين رسوله ·

محمد بن القاسم الثقفي

هذا فتى فى السابعة عشرة من عمره ملأت نفسه حماسة الايمان وحرارة اليقين وفروسية الفتح فذهب الى عمه الحجاج يطلب منه أن يوليه أمر الحرب .

لقد هزته أنباء الهزيمة التى منى بها من ساروا الى ثغر الهند فقد قتل ابن نبهان وبديل . وهو يريد أن يأخذبثأر هؤلاء الفرسان البواسل . ويمضى مندفعا الى هذا الوجه غازيا فى سبيل الله فاتحا .

ولقد كان « محمد بن القاسم بن محمد بن الحكم بن أبى عقيل الثقفى » من قوم عرفوا بالدهاء وسعة الحيلة ومضاء العزيمة . وقد كان فارسا وشاعرا ، عرف برجاحة العقل والحلم واجتذب قلوب كل من عرفه

وأثر عنه قوله « انصفوا الناس من أنفسكم . واذا كانت قسمة فاقسموا بالسوية . وراعوا فى فرض الخراج مقدرة الناس على ادائه . ولا تختلفوا ولا تنازعوا فتشقى بكم البلاد »

وقد عقد له الحجاج وأرسل معه ٢٠ الفا من المقاتلين منهم ستة آلاف فارس من جند الشام فمضى بهم فى البر بينما كان الاسطول يحمل المؤن وعدد الحرب الثقيلة فى البحر محاذيا لهم وقد حمل معه خمس مجانيق ضخمة يلقب أكبرها بالعروس .

خرج ابن القاسم من شيراز عام ٩٠ هـ مشرقا متتبعا ساحل البحر يطوى القفار يملؤه الأمل فى مجد فتح وجهاد ، واجتاز صحارى كرمان ومكران وبلغ الديبل وكان الاسطول قد لحق به . فما أن بلغها حتى خندق وركز الرماح ونشر الاعلام وأنزل الناس على راياتهم ونصب منجنيقه الضخم « العروس » وراح يضرب الصنم الكبير الذى أقامه أهل الديبل فحطمه وكان الحرس فيها خمسمائة رجل وكان (اليد) العظيم عليه دقل طويل وعلى الدقل سارية ضخمة عليها راية حمراء اذا هبت الريح اطافت بالمدينة وهى تدور . وكان أهل الديبل يعتقدون أن صنمهم لا يمكن لأى قوة أن تقترب منه . فما أن بدأ الصنم يتحطم حتى تحطمت معه قلوب العابدين وأحسوا بالهزيمة تملأ نفوسهم ، ولما أحس أبو القاسم بأنه على وشك النصر هاجمهم فارتدوا الى داخل الصنم .

وأصعد عليه على سلم منصوبة واحدا من رجاله الابطال ففتح حصن الصنم . ومضى المسلمون يضربون فى خصومهم حتى هزموهم واختط للمسلمين مجدا وبنى لهم مدينة وأنزل أربعة آلاف منهم وسار فى طريقه

مع النهر يريد « داهرا » عظيم السند وجيشه فاستولى فى طريقه على بيرون • وفتح صهبان وسلمت له سدوستان •

وعبر ابن القاسم نهر مهران حيث واجه الملك داهرا وجيشه على ظهور الفيلة ووقع صدام بين خيول العرب وفيلة الهنود • فكانت الخيول أثبت فى هذا المجال •

وما أن بدأ القتال حتى هربت الفيلة بعد أن واجهتها قذائف النفط الملتهب فهاجت وأحرقت هوادجها • وألقت من كان على ظهورها من الجند تحت سنابكها • وقتل الملك داهرا • وتمزق جيشه وتراجعت فلوله الى مدينة (برهمناباد) نفسها • ومن ثم زحف الى مدينة الرور فحاصرها ثم دانت له •

واستولى « محمد » على مدينة راور ثم زحف الى « الرور » فحاصرها واستولى عليها ثم قطع نهر بيامس الى « الملتان » أعظم بلدان السند العليا وهكذا أتيح لمحمد بن القاسم فى هذه السنوات الست أن يحصل على هذا النصر المؤزر •

وقد علت سنه فبلغ الثالثة والعشرين من العمر فهابه القوم وعلت مكانته ولمع اسمه • وبدا كأنما يكتب له المستقبل صفحة رائعة • ولكن القدر كان له بالمرصاد •

لقد قفل محمد الى الجنوب عام (٩٥) هـ مستوليا على مدن أخرى آخرها مدينة (الكيرج) التى استولى عليها • ثم جاءت الانباء بموت الحجاج ثم مات الوليد ابن عبد الملك الذى كان يكره الحجاج وأهله • وسرعان ما لحقه من الحجاج طرف من الأذى ولم يذكر له فضله فى الفتح والجهاد

لقد كان هناك خلاف بين الحجاج وبين سليمان بن عبد الملك • ولكن ما ذنب بطل السند ، وقد كان بعيدا عن مسرح الحوادث هناك فى الفتح لرفع راية الاسلام •

وجاء الأمر بعزل ابن القاسم عن امارة السند • وقدم الوالى الجديد: يزيد ابن أبى كبشه فأخذ ابن القاسم بعنف ، وقيده فى الاغلال ، ووضعه فى الحبس والحديد فى يديه ورجليه •

ولكن أهل السند الذين أحبوا ابن القاسم تأثروا من أجله ، وبكوا عليه فقد أحبوه وأكبروا رجولته وبطولته • وكانوا أشد ما يكونون جزعا من أجل سجنه •

ولكن خصوم الحجاج أرادوا امعانا فى التنكيل أن ينقلوه الى بلده الى مدينة « واسط » • ليظل هناك سجينا فى أصفاده • يسام العذاب كل ليل وكل صباح • وقد تلقى السجن والعذاب صابرا محتسبا وكان فى محنته شجاعا صامدا •

وانتهى الامر بأن ألصقت به تهمة أخذ بها وقتل • ويقال انه وضع فى أديم بقرة ثم خيط عليه الاديم وحمل الى دمشق ففاضت روحه •

وهكذا شهدت الهند لرجلين : الاسكندر المقدونى الذى فتحها فى القرن الرابع قبل الميلاد • ومحمد بن أبى القاسم الثقفى فى القرن الأول الهجرى •

* قال عبد الرحمن بن عوف أنه الأسد في برائنه ·

سعد بن أبي وقاص

قال أبو المنهال : سأل عمر بن الخطاب : عمرو بن معد يكرب عن خبر سعد بن أبى وقاص · قال : متواضع فى خبائه · عــــربى نمرته (كسائه) أسد فى تاموره · يعدل فى القضية ويقسم بالسوية · ويبعد فى السرية · ويعطف علينا عطف الأم البرة · وينقل الينا حقنــــا نقل الذرة ·

كان « سعد » من الرعيل الاول من المسلمين الذين آمنــوا بالدين وصاحبوا الرسول فى غزواته ومشاهده جميعا مما استحق معه أن يكون من العشرة المبشرين بالجنة ولقد وقف ســــعد فى صف بطولة خالد بن الوليد والمثنى بن حارثة وأبى عبيدة بن الجراح فهـــو صاحب القادسية والمدائن وهما من أعظم مواقع الفتح الاسلامى وأبعده أثرا فى تحطيم دولة فارس وسحق احدى القوتين الضخمتين التى واجهت الاسلام وعرف منذ صباه المبكر بقوة المراس وصلابة العقيدة يغلب عقله عاطفته حتى انه عندما أسلم اختلف مع أمه التى عارضته فى دينه الجــــديد وبلغ من أمرها أن قالت له :

يا سعد لتدعن دينك هذا ، أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت · فقال لها : والله لو كانت لك ألف نفس فخرجت نفســــا نفسا ما تركت دينى هذا لشىء · وكان الرسول يحبه ويقول عنه انه خاله · وهو أول من رمى بسهم فى الاسلام ومن الذين دافعوا عن النبى فى أحد فى بطولة رائعة حتى استحق قول النبى : أرم سعد فداك أبى وأمى ·

وقد وصف بأنه صوام قوام ،صدام اذا واجهالعدو ، روى الاحاديث عن الرسول·وكان من أحد الناس بصرا · رأى ذات يوم شيئا يزول فقال لمن معه ترون شيئا قالوا : نرى شيئا كالطائر · قال أرى راكبا على بعير· ثم جاء بعد قليل راكب على بعير ·

ولعله مما لا يقع لقائد من قادة الجيوش أن يقود معركة ضخمةوهو منبطح على وجهه وفى صدره وسادة · يشرف على الناس فى ميدانالمعركة ويرمى بالرقاع فيها أمره ونهيه · ولكن ذلك ما وقع لسعد فى معــــركة « القادسيه » التى انتصر فيها المسلمون انتصارا ساحقا ·

ذلك انه لما ولى عمر الخلافة وزاد الاضطراب فى بلاد فارس كتب المثنى الى عمر ودعاه لغزو العراق وأخذ عمر يسأل عمن يرسل · وكان

يراود نفسه أن يخرج هو لولا رده الصحابة واختار له عبد الرحمن بن عوف : سعدا وقال حين اختاره : انه الاسد في براثنه وكانت وجهته من الحجاز الى الكوفة يتسمع الاخبار ورسل عمر توافيه حتى يصل القادسية بباب العراق ٠

وفصل سعد عن المدينة في أربعة آلاف ثم أمده عمر بثلاثة آلاف ٠ هنالك عرف أن المثنى قد مات من جراحه في يوم الجسر وقد ترك له وصية ٠

وكان عمر قد وجه سعدا وهو خارج الى الغزو في عبارات تدل على مدى فهم عمر لنفسيات رجاله : يا سعد ٠ لا يغرنك من الله أن قيل خال رسول الله ٠ فان الله ليس بينه وبين أحد نسب الا طاعته ٠ فالناس شريفهم ووضيعهم في ذات الله سواء ٠

ومضى سعد يقرأ وصية المثنى يدعوه فيها ألا يقابل عدوه من أهل فارس اذا استجمع أمرهم ٠ وملؤهم في عقر دارهم ٠ وأن يقابلهم في حدود أرضهم على أدنى حجر من أرض العرب ٠ وأدنى مدرة من أرض العجم فان يظهر الله المسلمين فلهم ما وراءهم وان تكن الاخرى فاءوا الى فئة ثم أن يكونوا أعلم بسبيلهم ٠ وأجرأ على أرضهم أن يرد الله الكره عنهم ٠

وبعث سعد الرسل الى رستم برسائل يدعوه فيها الى الاسلام أو الجزية أو الحرب ٠ وكان الفرس يضحكون من نبل العرب وخيولهم العجفاء ، ويسخرون منهم ٠

وتزاحف الفريقان فلما عاود المرض سعدا قال احملوني وأشرفوا بي على الناس ٠٠ ثم أرسل سعد الى الناس يقول : اذا سمعتم التكبير فشدوا شسوع نعالكم ٠ فاذا كبرت الثانية فتهيئوا ٠ فاذا كبرت الثالثة فشدوا النواجذ على الاضراس ٠ ثم أمر من يقرأ سورة الجهاد فقرئت في كل كتيبة ٠

وكبر سعد ، والتقى الجيشان ٠ ثلاثون ألفا من المسلمين يواجهون مائة وعشرين ألف راكب٠ ودارت رحى المعركة ثلاثة أيام٠ قاتل المسلمون مستبسلين في اليوم الاول حتى اذا كان صباح اليوم التالي كان القعقاع ابن عمرو يحث السير في ألف من الجند وصلوا من الشام لنجدة جيش العراق ، فلما اقترب من القادسية قسم رجاله عشر فرق ٠ وعهد اليهم ألا تسير فرقة حتى تكون الفرقة التي سبقتها قد اختفت عن البصر ٠ ثم سار هو على رأس الفرقة الاولى ومضت الفرق تدخل حومة المعركة متتابعة، وكلما قدمت فرقة كبر القعقاع وكبر الناس فألقى ذلك في روع الفرس ان المدد لا حد له ٠ وكانت الفيلة التي قدمها الفرس في اليوم الاول قد تكسرت توابيتها واختفت في اليوم الثاني ثم لم تلبث في اليوم الثالث أن عادت الى فتكها ٠ فسأل سعد جماعة من الفرس الذين أسلموا عن مقاتلها فقالوا : انها شرافها وعيونها فأرسل الى القعقاع وعاصم ابني عمرو يقول اكفياني الفيل الابيض ٠ وكان الفيل بازائهما ٠ وبعث الى حمال

والريبل وكانا من بنى أسد يقول اكفيانى الفيل الاجرب · وكان بازائهما وكانا أشد الفيلة ضراوة والفيلة الأخرى تتبعهما ·

وترجل القعقاع وعاصم فوضعا رمحيهما فى عينى الفيل الابيض · ثم ضربه القعقاع بسيفه · ثم اندفع الفيل الاجرب فألقى نفسه فى البحر فتبعته الفيلة وألقت من كان يركبها وولت مدبرة ·

وفى الليل وبعد أن توقف القتال أرسل سعد طليحة وعمرا فى جماعه من الناس يحرسان مخاضة بأسفل المعسكر خشى سعد أن ينفلت منها الفرس · فلما ذهبا لم يجدا أحدا فرغبا أن يخوضاها · ولم يلبث القعقاع أن كبر أربع تكبيرات وارتاع الفرس واندفع العرب وزاحفوهم من غير أن يستأذنوا سعدا ·

وأطل سعد من مجلسه فلما رأى القعقاع يزاحف الفرس · قال : اللهم اغفرها له وانصره فقد أذنت له وان لم يستأذنى · وكان المقاتلون لا يتكلمون وتقدم القتال مع الليل وبات الجيشان فى المعركة ولم يغمض لسعد جفن وهو فى مكانه منقطعا ليس معه الا الضراعة والدعاء · ثم كشف الصبح عن نصر العرب ·· وتسمى هذه الليلة « ليلة الهرير »

واستمرت الحرب حتى اذا كان ظهر اليوم الرابع انفرجت صفوف الفرس بعد أن اضطربت · وهبت ريح عاصفة أطارت طيارة « رستم » من سريره فهوت فى العتيق · وزحف القعقاع الى السرير مع بعض جنوده فبلغوه فاندفع رستم فألقى بنفسه فى النهر فرآه هلال بن علقمة وكان يعرفه فاقتحم النهر وراءه · ثم خرج به وضرب جبينتــــه بالسيف حتى قتله · ثم صعد فوق سريره وهو يصيح : قتلت رستم ورب الكعبة ·

فلما تأكـــــد الفـــرس من موت قائدهم وهرب الهرمزان تحطمت معنوياتهم ، فاندفعوا يعبرون النهر على الردم · ولكن الردم انهار بهم فسقط فى النهر منهم ثلاثون ألفا وتم النصر لسعد وصحبه ·

وموقف آخر لسعد يدل على براعته الحربيه فقد تقدم العرب حتى اذا بلغوا نهر دجلة وقفوا ينظرون فى بهر عجيب ـ حيث كان على الشاطىء الآخر « ايوان كسرى » فى ضخامته وعظمته ·· وسحرهم مرأى المدائن أعظم السحر · وكانوا قد سمعوا عن هذا البناء الضخم الذى يقف قبالتهم ليس بينهم وبينه الا عبور هذه المخاضة ·

ووقف سعد يفكر قليلا ثم عزم على قطع هذا البحر · وكان العرب لايعرفون البحر وليس لديهم من ناقلات يعبرون عليها · هنالك دفع سعد ستمائة من رجاله على رأسهم عاصم بن عمرو على خيولهم الى البحر يحمون القراض فى كتيبة أطلق عليها كتيبة الاهـوال · وكان عاصـــم يقول للمترددين : أتخافون هذه النطفة · ثم رأى الفرس وهم يتهيئون للقاء العرب هناك صاح فى أصحابه : الرماح الرماح · اشرعوها وتوخــوا العيون · وارتدت خيول الفرس أمامهم ولم تصب كتيبة الاهوال بأذى · ورأى سعد تحكم أصحابه فى فراض المدائن فأمر فرسانه فاندفعوا جميعا ألوفا مؤلفة الى لجة النهر · وامتلأ النهر بالخيل فلم يكن ماؤه فى هـــذه

الساعة ليرى • وقد وصف هذا اليوم فى وقائع المسلمين بأنه معجزة اذ ساروا فى النهر بخيولهم كأنما يسيرون فى البر • وخرج الجيش فى الماء تنفض خيوله أعرافها وتصهل •

ولم يجد العرب فى المدائن آحدا ونزل سعد قصر الاكاسرة • واتخذ الايوان مصلى • ووجد بالخزائن ثلاثة آلاف ألف ألف درهم •

فلما بلغت أنباء الفتح عمر قال لسعد : قف مكانك ولا تتبعهم واقنع بهذا واتخذ للمسلمين دار هجرة ومدينة يسكنونها • ولا تجعل بينى وبينهم بحرا فاختط سعد الكوفة وعسكر جند العرب فى الخيام ثم تحولت الى بيوت من القصب •

وقد جعل عمر سعدا من أصحاب الشورى الستة • ووقف موقف الحياد فى أيام فتنة عثمان وزهد فى الخلافة وانقطع للعبادة • ولم ينجح معاوية فى كسبه الى صفه •

وقد عاش حياته متواضعا بالرغم من ثرائه الضخم • وقد أعطته مواقف القتال حكمة وحنكة وخبرة • وعرف بالعطف على جنوده حتى أخلصوا له وكانوا يفتدونه •

وهكذا استطاع سعد أن يكتب لنفسه صفحة بطولة فى الحرب والسلم على السواء • حيث انصرف عن مطامع الملك ونفض يده من المغانم واستقام على مثل عال من السمو قل أن نجد له نظيرا •

ولما جاءته الوفاة دعا بجبة له من صوف وقال كفنونى فيها فانى كنت لقيت المشركين يوم بدر وهى على • وانما كنت أخبئها لهذا • ومات عن ٧٢ سنة عام ٥٤ هـ •

* وامثنياه .. ولا مثنى للخيل اليوم

المثنى بن حارثة

هذا فتى من فتيان العرب وبطل من أبطال الاسلام ٠ وعلم من أعلام الفتح بدأ جهاده فى سبيل عقيدته قبل أن يكنف بالجهاد ٠ ولكنه القلب المؤمن والروح الصادقة والنفس المتطلعة الى المجد الراغبة فى رفع كلمة الاسلام واذاعتها فى كل مكان ٠ ورفعها فوق كل كلمة ٠

قدم على النبى فى وفد من قومه فى العام العاشر للهجرة ٠ ثم عاد بعد أن أسلم ينتظر الساعة التى يتاح له فيها أن يعمل ٠ فما أن أخذت جيوش العرب تتدافع فى عهد ابى بكر لتحفظ الاسلام من الردة ٠ حتى كان المثنى يغير على أطراف فارس وأنصارها من العرب ٠ ولما بلغت أخبار فروسيته وانتصاراته الخليفة قال عمر ٠ من هذا الذى تأتينا وقائعه قبل معرفة نسبه ؟٠ فقال له قيس بن عاصم : اما أنه غير خامل الذكر ولا مجهول النسب ولا قليل العدد ولا ذليل الغارة : ذلك المثنى بن حارثة الشيبانى ٠

وقدم المثنى على أبى بكر فقال له : يا خليفة رسول الله أبقنى على قومى فان فيهم اسلاما أقابل بهم فارس ٠ واكفيك أهل ناحيتى من العدو

وعاهد المثنى الخليفة الاول على أن يكفيه اهل ناحيته من العدو فقبل منه أبو بكر ٠

وعاد المثنى فكانت له صولات حققت له الظفر وسمعت له العرب فأطاعوا وأذل الله المشركين ٠ عندئذ بعث يطلب من أبى بكر مددا فارسل له « خالد بن الوليد » قائدا عاما ليضم المثنى اليه ٠ ولم يزعج المثنى ذلك أو يضعف من ايمانه وحماسته وقوة عارضته بل عمل مع خالد وشارك فى جميع وقائعه ٠

وولى قيادة الجناحين فى كل المواقع التى قام بها الجيش الاسلامى فى العراق فقد نزل خالد فى النباج (قرب البصرة) وأرسل الى المثنى يأتيه ٠ وكان مع خالد عشرة آلاف ومع المثنى ثمانية آلاف وقد اشتركا معا فى موقعة ذات السلاسل وفتح خالد الحيرة ٠ وراح يمد فتوحه الى الشمال فسار الى الانبار على الفرات فعين التمر ٠ ثم عن للخليفة أن يرسل خالدا الى الشام مددا لمن هناك وأن يخلف المثنى على جند العراق (١٣ هـ)

وترك خالد للمثنى نصف الجيش وهو حوالى ٩ آلاف مقاتل٠واتخذ

المثنى الحيرة مركزا لقيادته · وعاصمة للارض التى استولى عليهـا من الفرس · وبث عيونه من حوله حتى لا يؤخذ على غرة ·

ولكن كسرى الفرس (شهريزان بن ازدشير) لم يلبث أن وجه جيشا فى عشرة آلاف فخرج المثنى للقائه·والتقى الفريقان ببابل فاقتتلا قتالا شديدا · وكان الفرس قد جلبوا معهم فيلا كبيرا أخذ يخيف المسلمين فانتدب له المثنى نفسه وجماعة من رجاله فقتلوه وانهزم الفرس وتبعهم المسلمون الى المدائن يضربون أقفيتهم ·

وذهب المثنى مرة أخرى الى المدينة ليلقى الخليفة الاول ويحدثه بشأن زيادة قوته ويطلب اليه أن يضم اليه المرتدين من العـرب الذين عادوا الى الاسلام ·

ووجد أبو بكر على فراش الموت فلما استمع اليه قال :

انى لأرجو أن أموت فى يومى هذا فلا تمسين حتى تندب الناس مع المثنى ولا تشغلنكم مصيبة عن أمر دينكم ووصية ربكم · وقد رأيتنى توفى رسول الله وما ضعفت · ولم يصب الخلق بمثله · وان فتح الله على أمراء الشام فاردد أصحاب خالد الى العراق فانهم أهله وولاة أمره وجنده

وكان أول عمل بدأ به عمر بعد وفاة أبى بكر هو ندب الناس مع المثنى ·

قال عمر للناس : ان الحجاز ليس لكم بدار الا على النجعة · ولا يقوى عليه أهله الا بذلك · أين الكبراء والمهاجرون عن موعود الله ·سيروا فى الارض التى وعدكم الله فى الكتاب أن يورثكموها ·

وقال المثنى للناس : لايعظمن عليكم أمر الفرس · فانا قد تبجحنا ريف فارس وغلبناهم على خير شقى السواد وشاطرناهم · ونلنا منهم واجترأ من قبلنا عليهم ولها ان شاء الله ما بعدها ·

وقال عمر للمثنى : اسمع من أصحاب رسول الله واشركهم فى الأمر ولا تجتهد مسرعا حتى تتبين فانها الحرب·والحرب لا يصلحها الا الرجل المكيث الذى يعرف الفرصة والكف ·

ولم يلبث المثنى بعد عودته أن أعد العدة لتأهبات الفرس · كما بث العيون وجاءته الاخبار باتجاه الفرس الى العمل · هنالك قرر أن يبادئهم وآثر أن يقوم بالهجوم بدلا من الدفاع · لذلك خرج من الحيرة ونزل بحفان لئلا يؤتى من خلفه · وأقام حتى قدم عليه أبو عبيد ، الذى جعله المثنى على الخيل فى جيشه · وكانت معركة النمارق شديدة قاسية ·

وتواصل هجوم الفرس فى جيش وراء جيش والعرب يردونهم بقوة

وفى معركة « البويب » عمل المثنى بقوة وحصافة وحكمة · أرسل له « مهران » قائد الفرس وهو بازائه على الفرات يقول :

ـ اما أن تعبر الينا · واما أن نعبر اليك ·

قال المثنى : اعبروا

فعبر مهران فنزل شاطىء الفرات وعبأ المثنى أصحابه • وأمرهم بالافطار (وكانوا فى رمضان) ليكونوا أقوى على عدوهم فأفطروا• وأقبل الفرس فى ثلاثة صفوف وركب المثنى فرسه « الشموس » وقد سمى بذلك للينه • وكان لا يركبه الا اذا قاتل • وكان دائما أول الصف ، وأسرع الى القتال من جنده • وكان جنده يعلمون أنه يضحى بنفسه فى سبيلهم •

وحمل المثنى على « مهران » فأزاله عن مراكزه حتى دخل فى ميمنته ثم خالط الجيشان الواحد منهما الآخر • وكان المثنى قد أمر أصحابه بقوله : اذا رأيتمونا أصبنا فلا تدعوا ما أنتم فيه والزموا صفوفكم واغنموا عمن يليكم •

واشتد ضغط المسلمين على قلب الفرس • وقتل « مهران » قتله غلام نصرانى واستولى على فرسه • وتمكن المثنى من كسر قلب الفرس فأزاله عن موضعه وأفنى من كان فيه • ودفع هذا الحماسة فى قلب العرب فاندفعوا ليسحقوا جيش الفرس الذى فر منهزما الى الجسر •

وسبقهم المثنى الى الجسر ، وأخذ طريق الفرس اليه فتفرقوا • وأخذتهم خيول المسلمين حتى قتلوهم •

ولكن المثنى أصيب فى هذه الغزوة • ومات من اثر جراحاتها •

وقد قتل كل رجل من العرب فى هذه الموقعة عشرة من الفرس • وتبع المسلمون الفرس الى الليل وطاردوهم فى اليوم التالى • وانتصر العرب ببراعة المثنى ولما سار سعد الى المثنى • كان المثنى يسلم الروح• فقد توفى قبل قدوم سعد بسبب جراحه • ولكنه كان قد ترك وصيته كاملة الى سعد ضمنها خلاصة خبرته وتجاربه فى أمر العجم ويقدم له خطة كاملة للعمل كانت هى النور الذى أضاء الطريق لسعد •

ومات المثنى فى أوائل السنة الرابعة عشرة للهجرة وتزوج سعد زوجته التى وقفت بجوار سعد فى غزوة القادسيه فلما رأت ميمنة الخيل فى جيش المسلمين تنحرف هتفت صارخة : وامثنياه ولا مثنى للخيل اليوم فلطمها سعد بيده •

وفى كل معارك المثنى كان قادرا • تأثر بطريقة خالد فى الحرب • وكان عقلية عسكرية جبارة ، وله قدرة على العمل الخاطف فى اللحظة الحرجة : فقد أصلح الجسر فى احدى المواقع وحمى المسلمين من أن يلقوا بأنفسهم فى الفرات • وقال للناس : أنا دونكم على مهل ولا تدهشوا ولا تخافوا • وظل المثنى واقفا فلم يعبر الا آخر الناس •

كما وصفه المؤرخون بأنه كان صاحب مكيدة وحيلة وحسن تدبير عن خبرة وتجربة • وكان الى ذلك نافذ الرأى قوى الارادة •

وهو فى طول حياته يعطى صورة الرجل المؤمن المكافح الجلد الذى

لا يمل الكفاح والجلد فى سبيل فكرته وايمانه · وهو الى ذلك الفارس المغوار المدرب على الحرب والمواقع ·

وعندى آن المثنى هو الذى حرض أبا بكر على فتح العراق وفارس ولولا ثقة المثنى التى ملأت نفس الخليفة الأول لما أقدم على ذلك ، فقـــد كان المثنى رجلا شجاعا باسلا يملأ النفس بصدق قوله ويعول عليه ولا يذهب بقوله مذهب الخيال أو المبالغة والتهويل ·

وآية عظمة شخصيته أن أبا بكر كان يريد أن يوليه ولكن عمر ولى أبا عبيدة لانه أول النـــاس انتدابا ومع ذلك فان شـــيئا من ذلك لم يكن موضع تفكيره أو مصدرا لتغير نفسيته ·

انه متى يسر الله فتح بقية الساحل أوصيت وودعت وركبت البحر الى جزائره ، وتعقبت الفرنج فيها .

صلاح الدين الايوبي

يقف صلاح الدين الايوبى على قمة من قمم تاريخ الاســـلام وجهاد العرب فى سبيل الحرية والكرامة ومقاومة الاستعمار . فان جانبا خطيرا من تاريخ الامة العربية يرتبط باسمه ارتباطا ضخما . ذلك هو احتلال الصليبيين للساحل الشامى وانتصار صلاح الدين عليهم فى معركة حطين ثم احتلاله لبيت المقدس وما ارتبط بذلك من وفاء ورحمة ذهل لها الفرنجة وأكبروها من البطل الاسلامى وهو فى ذروة انتصاره .

وتعطى معركة حطين وما بعدها صورة صلاح الدين وترسم ملامح شخصيته بأقوى ما يمكن أن تصور فقد كان محاربا شجاعا بالغ الشجاعة خبيرا بفنون الحرب وضروبها وهو فى المعارك أقسى ما يكون نقمة على عدوه فاذا انتهت الحرب كان مثلا من الرحمة والعدالة والوفاء لخصـومه الى أبعد الحدود .

فقد استطاع صلاح الدين أن يضطر الصليبيين الى أن يحاربوا فى وقت لم يكونوا مستعدين فيه للحرب ، اذ أمسك بيده عنصر المبـــادأة واختار زمن المعركة وموقعها . وقد احتال لذلك فأخرجهم عن مواقعهم ليحاربوه فى منطقة جرداء خالية من المـــاء عندما هاجم طبرية ليغريهم بالاسراع لنجدتها فتركوا مواقعهم الحصينة واندفعوا الى حيث أراد لهم صلاح الدين الهزيمة الساحقة فقد تقدم الجيش فى أرض لا ماء فيها ولا زرع فقاسى الأهوال والشدائد ، ولقى المشاة اعياء شـديدا وتخلفوا عن الفرسان فى الوقت الذى كانت قوات صـــلاح الدين تمطرهم وابلا من السهام .

وهجم العرب على خيمة الملك ــ لوزنيان ــ فسقط أسيرا فى قبضتهم كما أسر أرناط ومقدم الداوية وكثيرا من الفرسان . وقتل صلاح الدين (أرناط) بيده جزاء وفاقا لما اقترفه من آثام وقضى على الفرسان .

وتقدم صلاح الدين فأخذ يفض حصون الصليبية التى لم تعد لها قيمة حربية بعد القضاء على الفرسان فاستولى على عكا (٥٨٣) ونابلس وقيسارية وصفورية ثم بيروت والرملة وعسقلان .

ثم حاصر صلاح الدين بيت المقدس (رجب ٥٨٣ ــ سبتمبر ١١٨٧)

حصارا دام أربعة عشر يوما ثم تمكن العرب من عمل ثغرات فى الاسوار فسلمت المدينة .

هنالك أحس صلاح الدين بأن الله قد أتم له النصر . فوقف مناديه يوما كاملا من مطلع الشمس الى مغربها ينادى : هل من فقير فنؤويه أو عاجز فنعفيه من فدية يؤوده دفعها أو يعجزه الحصول عليها ؟

وسمح للفرنجة أن يغادروا المدينة فى حمايتــه دون أن يصيبهم مكروه فيما يحملون معهم من غنائم أو أموال .

وخرج البطريق بمال كثير لم ينفق منه شيئا فى افتــداء يتيم أو مسكين . ورآه العرب فأشاروا على صلاح الدين أن يأخذ ماله فرفض فى شدة وقال : لا . ماكان لنا من حق فى ماله الا العشرة دنانير . وغـــيرى من يغنم المال عن طريق الغدر . دعوه يخرج به .

ذلك هو صلاح الدين فى قمة شجاعته الحربية وقمة وفائه .

بل انه عندما مرض ملكا الانجليز والفرنسيين فى حصار عكا أرسل اليهما البلح والفاكهة والطبيب . وأهدى الى « ريتشارد » جوادين عندما رآه يقود جموعه راجلا .

ولكن هل استطاع صلاح الدين أن يحقق هذا النصر على الفرنجة بعد مائة عام من احتلالهم للساحل فى سهولة ويسر وبساطة ؟

الحق ان صلاح الدين بذل جهودا ضخمة متصلة حتى حقق هــذا النصر . وكان أول عمله أن وحد الجبهة كلها وكتلها لمقاومة الصليبيين وقضى على الامراء المتنازعين .

وقد تنقل صلاح الدين فى بلاد الشام يدعو الى الوحدة مؤمنا بأن الشام هو أصل بلاد الاسلام . وقد زار الرها وبرقة ونصيبين .

وقد قاوم الصليبيون هذا العمل بجهود مضاعفة وبذلوا فى سبيل معارضتها وتحطيمها كل ما لديهم من أمـوال واغراءات . فقـــد أسرع الصليبيون فعقدوا مع بعض أمراء الموصل وحلب اتفاقات للوقوف فى وجه تكوين جبهة عربية موحدة . ولكن صلاح الدين استطاع عام (٥٧٩ هـ) أن ينجح فى جمع الشمل وأن ينسف كل الصخور التى كانت تقف فى سبيل ذلك .

وكان الشهيد نور الدين محمود هو الذى بدأ هذا الاتجـــاه نحو الوحدة العربية الاسلامية ومضى فيه شوطا . فلما توفى عام (١١٧٤ م) لم يكن فى المنطقة كلها من يصلح لحمل هذه الرسالة والاندفاع بها خيرا من صلاح الدين فى طموحه وجرأته ووجوده على رأس دولة ضـخمة من دول العرب كمصر .

وقد رأى صلاح الدين من المصلحة مهادنة الصليبيين حتى يتم له التكتيل العربى وزيادة قوات الجيش ومدها بالاسلحة .

وقد حاول أرناط صاحب الكرك التعرض للقوافل · ووقفت عقبة فى سبيل التجارة بل عمد الى العمل على الاستيلاء على البحر الاحمر لولا أن سحق قواته أحد قواد صلاح الدين (حسام الدين لؤلؤ) فى يناير ١١٨٣

وقد أكسبت صلاح الدين حياته فى بلاد نور الدين واشتراكه فى شبابه فى معارك كثيرة خبرة ضخمة ثم جاء الى مصر فى الركب ، غير ان القدر كان يخبىء له الدور الاول · فهو ابن الظروف والاحداث التى وطدت له بعد ضربات سريعة مركزا ضخما فى القاهرة لا يبارى وكان موت عمه أسد الدين وسيده نور الدين وموت الخليفةالفاطمى على فترات متقاربة من العوامل الهامة الرئيسية التى أولته مكان الصدارة ودفعت به الى مكان القيادة ·

كان أول ما اهتم له « صلاح الدين » هو نقل مصر الفاطمية الى السنة · فدعا للخليفة العباسى بدلا من الخليفة الفاطمى · وكان ذلك ولا شك من الامور الخطيرة التى تحتاج الى دراسة عميقة لنفسيةالشعب· واعداد الخطة اللبقة لمواجهة الموقف ·

انما أراد « صلاح الدين » أن يقوم بأضخم انقلاب فى مصر دون أن يريق قطرة دم واحدة · وقد وضع خطته على مراحل · فأبطل من الاذان ما أضافه الفاطميون اليه تمييزا لدعوتهم · وهى عبارة (حى على خير العمل) فلم ينكر الناس عليه ، ثم كلف الامام فى المسجد الجامع الكبير أن يخطب الجمعة على أن يهمل من الخطبة الثانية ذكر العاضد الفاطمى · وانتظر حتى يرى أثر ذلك ووقعه فى النفوس ·

غير ان الظروف نفسها كانت فى صف « صلاح الدين » فقد مات العاضد قبل الجمعة التالية · وقد تأثر صلاح الدين وود لو كان له الا يرفع اسمه من الخطبة ·

ولكن الامر لم يمض بهذه السهولة·فقد جاءت المؤامرة عقبالاحداث اذ تجمعت عناصر الشر لتغتال «صلاح الدين» وأمكن احباط المؤامرة التى قادها عمارة اليمنى · وكانت ترمى الى اغتياله واستدعاء الفرنجة من صقلية والساحل والاستعانة بالقرامطة الاسماعيلية ·

وقد تمكن أنصار صلاح الدين من دس بعض الموالين لهم للعمل مع المتآمرين حتى وصلت الى المرحلة الحاسمة · وعند ذلك وضع المسئولون يدهم عليها ·

وتلت هذه المؤامرة : مؤامرة أخرى : مؤامرة مؤتمن الخلافة العبد الخصى الذى كاتب الافرنج واتفق معهم · وقد وقعت المكاتبات فى يد « صلاح الدين » فى الوقت المناسب ·

واستطاع صلاح الدين أن يدعم سلطانه فى مصر برجال ثلاثه :

القاضى الفاضل ، والمهندس بهاء الدين قراقوش ، والفقيه عيسى الهكارى ·

وما أن انتهى « صلاح الدين » من القضاء على خطر الفاطميين حتى واجه خطر الفرنجة · ومضى يجاهد فى سبيل الله صـــدر حياته حتى استشهد · وكانت غايته استرجاع بيت المقدس من أيدى الفرنجة ، وهو ان كان قد قضى قبل أن يقضى على الفرنجة نهائيا فهو قد مهد الطريق لمن جاء بعده وذلل لهم السبل لتحقيقهذه الغاية التى أتمها «الظاهر بيبرس» ·

ولا شك أنمعظم ما وصل اليه صلاح الدين من ظفر ونصر انما يرجع الى فضل نور الدين محمود الذى مهد له الطريق ورسم له الخطة وعبد له الارض ··

ولا شك أن طبيعة « صـــلاح الدين » النفسية ، كانت عاملا قويا من عوامل الظفر الذى كسـبه فى معارك الحرب ومعـارك التمهيد والتوحيـد والتجميع ، فقـد تجمعت حوله الخصـومات والعداوات · وحيـكت حوله المؤامرات · حاكها خصومه فى مصر فى أذيال العهـد الفاطمى · وحاكها خصومه من أمراء الشام · وحاكها الصليبيون حين اتفقوا مع الباطنيـة · وظل صلاح الدين صامدا للاحداث يؤمن بطريقه ، ويمضى على أسلوبه فى الوفاء بوعده · ورفض فى كل مرة أن يهـاجم الفرنجة ، وهو على علم بما يدبرون من مؤامرات ، وكان يقول : انى لاستحى من الله أن يرانى ناقضا للعهد · وانى لاستحى من نفسى أن أكون كاذب الوعد · وما النصر الا من عند الله ·

***

وما أن استقر الامر فى مصر ، حتى خرج الى الشـــام ليرى أمرها بعد وفاة نور الدين وليكون قريبا من موطن الاحداث · ولكنه لم يعد الى مصر بعد ، فقد شغله الجهاد حتى قضى وهو فى قلب المعركة ·

لقد كان العرب فى حاجة الى شخصية قوية تجمعهم · وقد وجدوها فى صلاح الدين · وسرعان ما اتسعت مملكته فامتدت من برقة الى اليمن الى النوبة الى ديار بكر والجزيرة وارمينية· وحق هنا تخليص بيت المقدس· وكان أمد المهادنة بينه وبين الفرنجة قد انتهى · وكانت ضربته فى «حطين» من أقوى الضربات التى جاءت فى وقتها · فقد حطمت مؤامرة ضخمة عقد الفرنج خيوطها ·

وعندما انضمت اليه حلب وفرح المسلمون بهذا الفتح · بلغـه نبأ وفاة أخيه فحزن لذلك أشد الحزن ولكنه حرص على الا يبلغ ذلك للنـاس حتى لا يفسد عليهم فرحهم وانتحى ناحية وأخذ يبكى · ولما سئل عن حلب قال :

والله ما سررت بفتح مدينة كسرورى بفتح هذه المدينة ·

***

عامل الفرنجة خير معاملة · عنـدما وقع معهم شروط الرحيـل عن القدس ، ترك لهم المدينـة حتى لا يؤذى شـعورهم · واعفى من الضريبة

سبعة آلاف .. عجزوا عن الدفع . وعندما أخذوا فى بناء سور القدس اشترك فى حفر الخندق ، ونقل الحجارة على عاتقه ولقد كان صلاح الدين غاية فى الايمان بالله . يطيل الركوع والسجود . ويتوجه الى الله فى الملمات داعيا باكيا . يعتمد على سلاح دعاء السحر فى محاربة خصومه . كما يقف منهم موقف الخلق والرحمة . فلا يجهز على جريحهم ولا يقتل من جاءه مستجيرا . هذا فى الوقت الذى لقى فيه من ظلم الفرنجة وغدرهم الكثير . ومع ذلك لم يفكر فى أن يستخدم أسلوبهم .

وهو الى ذلك كله أديب مرهف الحس . يحب الشعر ويكره الترف وينفر منه ، حرص على تطهير العقيدة من الاوهام والبدع وقد اتيح له أن يصل الى كل ما يريد .

وكان يجلس للعدل بين الناس يومى الاثنين والخميس من كل أسبوع فى مجلس عام يحضره الفقهاء والقضاة والعلماء .

ولم يرد قاصدا ولا طالب حاجة وما ترك مظلوما دون انصافه . وقيل أنه كان يعطى فوق ما يأمل الطالب ويعطى الكثير ويبسط وجهه للعطاء بسطه لمن لم يعطه شيئا .

ولم يخلف فى خزائنه من الذهب والفضة الا سبعة وأربعين درهما ولم يخلف ملكا ولا دارا ولا عقارا .

وقد وقف صلاح الدين على البحر ومعه القاضى الفاضل وابن شداد . وقال : انه متى يسر الله فتح بقية الساحل قسمت البلاد واوصيت وودعت وركبت البحر الى جزائره وتعقبت الفرنج فيها .

ولعل مما يؤخذ على صلاح الدين هو فرط سماحته حتى أنه اطلق سراح جاى دى لوزبينان ملك بيت المقدس بعد أن وعده أن يغادر الشام ثم حنث بعهده للملك ومضى الى صور حيث طلبه كونراد صاحب حاميتها أن يتولى معه زمام أمر أراده حيث اتجه الى طرابلس وحشد فيها الحشودوذهب الى عكا وكانت فى يد العرب فضرب حولها الحصار عامين يعاونه فيليب ورتشارد ملكا فرنسا وانجلترا . وقد قتل فى هذا الحصار ستون ألفا من المسلمين ، ثم جرت يوم فتحها مذبحة رهيبة ذهب فيها الفان وسبعمائة مسلم .

وقد أدى سقوط عكا عام ١٢٦١ فى أيدى الصليبيين الى نتيجة حؤلمة رهيبة هى امتداد الحروب الصليبية مائة عام أخرى .

يرحم الله أبا ذر · يمشي وحده · ويموت وحده · ويبعث وحده ·

أبو ذر الغفاري

(جندب بن جناده)

دخل على النبى وأسلم مكانه · فقال له النبى : ارجع الى قومك فاخبرهم حتى يأتيك أمرى · فقال : أبو ذر : والذى نفسى بيده لاصرخن بها بين ظهرانيهم · فخرج حتى اتى المسجد فنادى بأعلى صوته : « اشهد أن لا اله الا الله » فقام القوم اليه فضربوه حتى اضجعوه ·

وقد تلقى دروس الزهد عن رسول الله ، فكان لا يفترق عنه لحظة فى سفر أو حضر ، يستمع اليه ويسأله ويحفظ عنه · وقد انقطع الى عبادة الله معرضا عن زخارف الدنيا · فاذا جن الليل أوى الى المسجد فنام مع أهل الصفة ·

وأحبه الرسول لزهده وتقشفه · وقضى رسول الله · ومضى أبو ذر يبشر بدعوته فى احتقار الدنيا والزهد فيها ورعاية الفقراء وانفاق الاموال فى سبيل الله ·

ويقول : « ان الدنيا دار من لا دار له · ومال من لا مال له · ولها يسعى من لا يقين له » فاذا مات له ولد من ولده قال « انما يولدون للموت ويعمرون للخراب · ويحرصون على ما يفنى ، ويتركون ما يبقى ، الا حبذا المكروهان : الموت والفقر »

ولاه النبى مرتين : حين غزا نجدا فى السنة الرابعة للهجرة والثانية فى السنة السادسة للهجرة حين غزا بنى المصطلق ·

وفى غزوة العسرة : أخذ متاعه فحمله على ظهره وخرج يتبع رسول الله ماشيا ونزل الرسول فى بعض منازله فنظر أحد المسلمين فقال : يا رسول الله · ان هذا الرجل يمشى على الطريق وحده · فقال الرسول : كن ابا ذر فلما تأمله القوم قالوا يا رسول الله هو والله أبو ذر · فقال الرسول : رحم الله أبا ذر ، يمشى وحده ويموت وحده ويبعث وحده ·

وكان من أهل الصفة من الفقراء ، وألحقه عمر بمن شهد بدرا فى توزيع العطاء على الرغم من أنه لم يشترك فيها ·

***

هجر أبو ذر المدينة الى الشام بعد موت عمر وأقام هناك · ورأى الدنيا

وهي تتفتح للمسلمين فيبنون القصور · ويكنزون الاموال · ويلبسون الحرير ويأكلون المرقق فجاشت نفسه بمعاني الورع · وآمن بأنه لا بد أن يواجه الجموع ويخاصم المترفين ويبث فيهم كلمة رسول الله ·

وكان يكتفي بشربة ماء أولبن في ليلته · وفي كل جمعة قفيز من قمح · وكان ينفق ما يصل اليه من المال القليل · ويقول : ان خليلي عهد الى ايما ذهب أو فضة اوكيء عليه فهو جمر على صاحبه حتى يفرغه في سبيل الله » ·

واجتمع الفقراء الى أبي ذر يستمعون اليه وهو يحدث عن الزهد والتقشف ، ويبدو في قامته الطويلة النحيلة ، ولونه الأسمر ، وعليه جلبابه الرقيق ، انه صورة ممثلة في الزهد ·

ومضى أبو ذر يندد بالصحابة الذين أخذوا يجمعون الذهب والفضة ويبنون القصور · فقد كان عمر يحجزهم في المدينة فلما قضى ؛ وولى عثمان خرجوا الى الامصار ·

وكان أبو ذر قد عاد الى المدينة بعد موت عمر وولاية عثمان · فرآها وقد تحولت الخلافة الى صورة الملك ، وبدت مظاهر الترف ، فبنى الزبير وطلحة وعبد الرحمن بن عوف الضياع والقصور · وكان لسعد بن أبي وقاص دار بالعقيق · ووهب عثمان أهله ومن حوله المال الكثير · اعطى مروان والحرث بن العاص ، وزيد بن ثابت · ولم يسكت أبو ذر فقد كان لايخشى أحدا · ومضى يدعو الناس الى الزهد ويهاجم عثمان ويتلو الآية الخالدة التي جعلها مرآة دعوته : « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم » ·

وكره عثمان دعوة ابي ذر ، ودعاه ليصرفه عما يقول : واتهمه بأنه يحرض الناس عليه · وكان أبو ذر قاسيا ، لا يعرف الهوادة فيما يؤمن به ، واجه عثمان بعنف « فوالله لان أرضى الله بسخطك أحب الى وخير لى من أن اسخط الله برضاك » ولم يجد عثمان بدا من أن يلحقه بالشام ·

***

وفي الشام اصطدم أبو ذر بمعاوية مرة ومرة · كان معاوية يختزن الفيء ويقول : إنه مال الله · وكان أبو ذر يناهضه الرأى · ويدعوه الى أن يوزع المال على أهله لانه مال المسلمين · وبنى معاوية قصر الخضراء · وانفق عليه مئات الآلاف · وكره ذلك أبو ذر واتهمه بالاسراف وتوهجت دعوة أبي ذر فمضى يحدث الناس في المسجد ويحمل على معاوية وعثمان · وصاح صيحته ضد الاغنياء وكانزى المال · فاجتمع له الفقراء واحبوه ·

ووشى به رجال معاوية وقالوا : ان أبا ذر يفتن الناس ويفسد عليك الشام · ولم يقف أبو ذر عند الدعوة بل قصد الى معاوية مرة ومرات يناهضه الرأى ويطالبه بأن يصرف أموال الفيء التي هي من حق المسلمين اليهم ولا يختزنها · ويقول له ان الرسول وابا بكر وعمر ، كانوا يوزعونها واتهمه بأنه انما يحتجزها ليصرفها الى خدمه وحراسه وابهته · بينما لايحل له الا ما يكفيه لملبسه وطعامه كرجل من أوسط الناس ·

وكان معاوية يهدده بأنه يدعو الناس الى الفتنة وكان أبو ذر يرفض أن يصمت ويقول : لا أرجع حتى يبذل الاغنياء فضلة أموالهم ·

ورفض أبو ذر أن يدفع الاغنياء الزكاة · وقال ان البر هو انفاق المال كله لا يبقى منه شيء ·

وكان قدوته فى دعوته الرسول نفسه الذى لم يترك درهما ولا دينارا · وحديثه « الاكثرون هم الاقلون يوم القيامة » ·

وحمل حملة شعواء على اكتناز المال ، وبناء القصور والتماس ألوان الطعام وقد خرج رسول الله من دنياه ولم يشبع من خبز الشعير ·

وحاول معاوية أن يتخذ الطريق الى قلب أبى ذر على أسلوبه فأرسل اليه ألف دينار ذات مساء · فلم يصبح الصباح حتى اذا كان أبو ذر قد وزعها على المعوزين · فلما صلى الصبح ، جاءه رسول معاوية يقول له : « انقذ جسدى من عذاب معاوية · انه قد أرسلنى بهذه الدنانير الى غيرك فأخطأت حين جئت بها اليك · فقال له أبو ذر ، «يابنى والله ما أصبح عندنا من دنانيرك شيء · ولكن اخرنا ثلاثة أيام حتى نجمعها ·

وقد أكد هذا لمعاوية ان الرجل صادق فى دعوته · وأنه لم يدخر المال فى بيته ليلة واحدة ولم يثن ذلك أبا ذر فتيلا عن دعوته فمضى يدعو الناس ويجتمع بهم وينهاهم عن كنز المال · ولا يكف عن الحملة على الاغنياء ·

ووقف معاوية على المنبر يقول : » انما المال مالنا والفىء فيئنا » فوقف له رجل من أقصى المسجد وقال له: ان المال مال المسلمين لامالك يا معاوية· وعرف معاوية أن دعوة أبى ذر قد تأصلت فى نفوس الناس وانها بدأت ثمارها ·

وجاء ابا ذر من يهدده باهدار دمه · ولكن انى لهذا أو غيره أن يرد الرجل الزاهد الذى لا يهاب الموت ولا يخشاه ·

وأصر أبو ذر على أنه لا يكف حتى يوزع المال على جميع المسلمين · وأعلن أن اغضاب معاوية خير من اغضاب الله ·

وكان أبو ذر فى خلال هذه الفترة من الكفاح قد لقى مزيدا من الاعنات ، فقد انقطع عنه المال · وعاش حياة مهددة · واضطهده أصحاب معاوية · ولكن ذلك كله لم يرده عن دعوته ولم يكفه عن صيحته ·

وماتت ابنته بعد أن مرضت طويلا ، دون أن يعنى بها · فقد كان ماضيا فى طريق دعوته ولا يعوقه شيء مؤمنا بأن الاموال لله والاموال فتنة ·

وضاق معاوية بأبى ذر فكتب فى شأنه الى عثمان يقول :

ان ابا ذر يجمع حوله الجموع وقد ضيق على واعضل بى · ولا آمن

أن يفسدهم عليك فان كان لك فى القوم حاجة فاحمله » وحمل على قتب الى المدينة حتى كاد أن يتلف » ·

وفى المدينة عاد الى دعوته والى صراعه مع عثمان ·

ومضى يهاجم أسلوبه فى الحكم ويدعو الى انفاق المال ويطالبه بأن يتبع طريق صاحبيه · وحظر على الناس أن يجتمعوا به ولكن النـــاس كانوا يستمعون اليه مؤمنين· ومضى هو يفتيهم ويهاجم الاغنياء فى عنف ولا يخشى شيئا ·

وكره عثمان بقاء أبى ذر فى المدينة · واختــــار أبو ذر الاقامة فى « الربذة » فخرج اليها حيث عكف على العبادة والصلاة · وبنى مسجدا صغيرا يصلى فيه · ولم يلبث موسم الحج أن بدأ ، وبدأ توافد الناس على أبى ذر وهم فى طريقهم الى مكة ليستمعوا اليه وهو لا يتحدث عن عثمان ولكنه يتحدث عن الزهد والايمان وانفاق المال فى سبيل الله ·

وامضى ايامه فى المنطقة الجرداء القفر مع زوجته وبعض غلمانه · وقد أعطاه عثمان بعض الابل ، وأجرى عليه العطاء ·

وكانت قد تقدمت به السن ، وفقد أولاده واحدا بعد واحد ·

وكانت الدنيا هينة عليه منذ اليوم الاول فلم يحفل بها . وزادته الوحدة انصقال نفس واشراق قلب · ومضى يذكر أيامه فى صحبة رسول الله ، وتلك الوصايا التى أوصاه بها ·

وذكر يوم أن قال له الرسول : انه سيمتحن وسيلقى من بعده الاذى وكيف أنه لم يرتجف · وانما سأل عما اذا كان ذلك فى الله · فلما أمن الرسول على قوله · قال · مرحبا بأمر الله ·

وفى هذه الفلاة الموحشـــة جاء الموت لابى ذر · وليس من حوله الا زوجته وليس عنده ثوب يكفن فيه . ووقفت زوجته تحدق فى الفلاة لتشير الى أى من تراه مارا لتدعوه ·

فلما أقبلت قافلة من الناس دعتهم اليها· فلما رآهم ذكر قول الرسول « ليموتن رجل منكم بفلاة من الارض تشهده عصابة من المؤمنين » ·

كان ذلك عبد الله بن مسعود فى رهط من أهل العراق فلم يرعهم الا الجنازة على قارعة الطريق · وكان ذلك عام ٣١ هـ ·

قال عليه السلام : ما اقلت الغبراء ولا اظلت الخضراء أصدق لهجة من أبى ذر ·

ويروى الطبرانى : أن رسول الله كان يبتدىء أبا ذر اذا حضر . ويتفقده اذا غاب ·

لقد عاش أبو ذر يحمل الدعوة الى الزهد · يقول كلمة الحق ·
وقد حملت دعوته الاجيال · ·

صلاح الدين الورع ، وفساده الطمع

الحسن البصرى

دخل الامام على جامع البصرة فأخرج القصاص وهو يقول : القصص بدعة .. حتى انتهى الى حلقة شاب يتكلم على جماعة فاستمع اليه فاعجبه كلامه فقال : يا فتى ، اسألك عن شيئين . ان خرجت منهما تركتك تتكلم على الناس والا اخرجتك كما أخرجت اصحابك .

فقال : سل يا أمير المؤمنين . فقال اخبرنى : ما صلاح « الدين » وما فساده .

قال : صلاحه الورع وفساده الطمع . قال صدقت فتكلم فمثلك يصلح أن يتكلم على الناس .

ذلك هو الحسن البصرى داعية الورع والزهد والتقى. أول من وضع أسس الزهد ورسم طرق محاسبة النفس وأعلى من شأن فضائل الخوف والرجاء .

يقول : ان الخوف والرجاء دعامتان يستند اليهما المؤمن على أن يكون الخوف عنده أقوى من الرجاء . لان الرجاء عندما يغلب الخوف يفضى الى فساد القلب .

ومضى الحسن البصرى يدعو الى تخليص المجتمع من الفساد الذى دب فيه حينما بدا الرعيل الأول من الصحابة يجمعون الأموال ويبنون القصور ويتخذون الفراش الوثير وأوانى الذهب والفضة والحجاب والشرطة ويقلدون المظاهر الكسروية والابهة الفارسية .

رأى الحسن البصرى ان عوامل الفساد هذه التى سببتها الاموال التى جاءت بعد الفتح ، لادافع لها الا تطعيم المجتمع بمبادىء الزهد .

فبدأ يسخر من النفع المادى . ويحارب المآرب الدنيوية . ويجمع من حوله المريدين صارفا اياهم عن الانحراف والجشع والتطلع الى الاثرياء. ومضى يقول :

« إنكم لاتنالون ماتحبون الابترك ماتشتهون . ولاتدركون ماتؤملون الا بالصبر على ما تكرهون » .

وحتى يثبت هذه المعانى فى النفوس مضى يصور الموت بصورة مرعبة تذهل النفوس عن الواقع الذى يعيشون فيه ، واقع الفقر والظلم .

وقد صور ذلك فى قوله : « ان أخلص الناس ايمانا يوم القيامة أشدهم محاسبة لنفسه ، وأشد الناس فرحا يوم القيامة أشدهم حزنا

فى الدنيا ، وأن أكثر الناس ضحكا يوم القيامة أكثرهم بكاء فى الدنيا » .

* * *

نصب « الحسن البصرى » نفسه قاصا بالمسجد مخالفا مذاهب القصاص من تهويل واغراق ، ومضى يتكلم عن الموت . وعيوب النفس والزهادة فى المال والشيطان الذى يجرى فى الانسان مجرى الدم .

وأخذ من حديث رسول الله هذا الجانب الذى يحمل الوعيد ، ويرسم صورة الخوف الشديد ، والتحرز من الصغائر ، والرهبة من عذاب النار ، واستصغار الدنيا الفانية ، وقال ان أساس الدين التقوى والحزن والخوف .

وكانت حلقته من رسم جديد ، فى الاسلام . تدعو الى الانقطاع لله . واوصى المنقطعين ان ينتهجوا ثلاثة مسالك : الامل والاجل والسحر .

يعد الحسن البصرى المدرسةالفلسفية لمذهب « ابى ذر » فقد ولد بعد الهجرة بعشرين عاما ، وتفتحت نفسه للحياة فى عهد عثمان . وكان مقتل عثمان نفسه هو عقدة حياته وروح فلسفته .

فقد رأى الثورة على عثمان . وشاهد ابا ذر . واستمع اليه ورأى حماسته وعلق بنفسه اثر من معانيه . وزاد هذا المعنى أنه من الموالى .

وقد بدأت للموالى قضية منذ ذلك التاريخ ، بدأت مع الأحداث ، حينما استطالت النزعة العربية واستعلت على غيرها . فلما خرج للغزوات رأى هؤلاء الموالى وهم يذهبون وقودا للحرب . بينما يظفر العرب بالغنائم . وقد أداه ذلك الى ان ينصرف من الغزو الى الزهد . ومن الصراع على مطامع الحياة الى دعوة الناس الى العبادة . والدعوة الى كراهية الدنيا والانصراف عنها .

وكانت الصورة المثالية لعهد عمر ، هى التى رسمت له طريقه . والتقى بفقهاء أعلام فى المدينة منهم : عياض بن حماد . ومعقل بن يسار المزنى . وسحرة بن جندب . وأبو عثمان الهندى .

وفى خلال الغزوات تعرف بقطرى بن الفجاءة . والمهلب بن أبى صفرة وغادر الحسن المدينة الى البصرة أيام صفين . وتردد على حلقات مسجدها . واستمع الى العباس يفسر القرآن . وتعلم من حطان الرقاشى القراءات .

والتقى فى البصرة بعمر بن أبى الحصين . وعبد الرحمن بن سمره . واستمع من هؤلاء جميعا أحاديث رسول الله وقصص ورعه . فكونت فى مجموعها العوامل التى تتفق مع طبيعته فى الاتجاه الى الزهد . اذ لا شك ان الحسن كان قد تأثر بطبيعة هذا الاتجاه ، غير ان هذه الصور والرؤى قد اعطته مادة فنه ودعوته وانشأت ذلك المذهب الجديد الذى انفرد به قصاصو البصرة ورضى عنه أمير المؤمنين على بن أبى طالب .

وأتيح للحسن أن يذهب الى أقصى المشرق مع الغزوات فحضر حصار كابل وفتحها . وعمل مع الربيع بن زياد والى خراسان .

وكان الحسن يؤمن بمبدأ التقية . ولذلك وقف من الدعوات المختلفة ، والصراع المستمر موقف المتفرج .

وعاش ممتنعا عن أكل اللحم والسمن والدخول على الامراء .. ثم انقطع أخيرا عن مجلسه فى المسجد الجامع .

وعندما سمح سليمان بن عبد الملك للناس فى توزيع الاراضى الموات كى يستغلوها رأى ابنه الناس وقد أقبلوا على أخذ الاقطاعيات فذهب الى أبيه يقول : لو أخذنا كما يأخذ الناس .

فقال الحسن : اسكت مايسرنى لو ان لى ما بين الجسرين بزنبيل تراب .

ولم يمنعه هذا من أن ينصح للدعاة وطلاب الملك . فقد كتب لابن الزبير يقول : ان لأهل الخير علامات يعرفون بها ويعرفونها من أنفسهم . منها الصبر على البلاء والرضى بالقضاء . انما الامام سوق فما نفق فيها حمل اليها . فانظر أى سوق سوقك .

واتسعت شهرة الحسن البصرى وكثر أتباعه فى أواخر أيام معاوية واستجابت البصرة لدعوته وقد كان الحسن جريئا فى الحق . نقد الولاة وجهر بمخالفته لاستخلاف يزيد بن معاوية ، ومعارضة الخلافة الأموية الوراثية . وقد وضعه هذا موضع مراقبة عملاء الحجاج حتى اضطر الى الاختفاء والتوارى .

ولكنه لم يمض فى سبيل مقاومة الحكم . واكتفى بان يدعو الناس الى الزهد واستصغار الدنيا .

جمع ما بين العلم والورع . وكان يقال له صاحب العمامة السوداء ، قال عنه نقاده : عليكم بهذا الشيخ . فوالله ما رأينا أحدا ممن صحب رسول الله أشبه بأصحابه منه ويقال انه ما ضحك أربعين سنة .

يأكل خبز الشعير فى خاصته ، ويطعم أهله الجشكار . فاذا جنه الليل لبس المسوح . وغسل اليد الى العنق . وبات باكيا حتى يصبح .

ولم يخالف قوله فعله . يبذل المال فى سخاء . ويرفض زواج ابنته من رجل غنى . بيته من الخشب . خلو من فراش أو بساط أو حصير . وسريره منسوج من السعف .

وكان طويل القامة ، عريض العظام ، جميل الوجه وسيما عيناه زرقاوان وصوته جهورى .

ولما اشتد به الوجع طلب الى الخادم أن يسجر التنور ، وكانت لديه صحف وكتب فأمر بها فاحرقت غير صحيفة واحدة .

ورسم « الحسن البصرى » بحياته صورة ممتازة للشخصية الزاهدة التى لا يخالف قولها فعلها . آمن بدعوته وفنى فيها . وعاش لها تسعين عاما الا عاما واحدا . كان عمر بن الخطاب مثله الأعلى . وحذيفة بن اليمان أستاذه . التقي بسبعين بدريا . ورأى ثلثمائة صحابى . قيل وكان كلامه يشبه كلام الرسول .

ان معی ربی سیهدین ٠

منذر بن سعيد

انفق الناصر ثلثمائة ألف دينار كل عام على بناء الزهراء · وظل على ذلك خمسة وعشرين عاما · وجلب لها زخارف الدنيا وبدائعها · ألف سارية من أفريقيا · وحوضا منقوشا بالذهب غريب الشكل · وجعل على الحوض اثنى عشر تمثالا من الذهب الاحمر مرصعة بالدر النفيس الغالى · ويخرج الماء من أفواهها · وبنى بركة واسعة عليها أسد عظيم الصورة ·· شديد الروعة مطلى بالذهب · وعيناه جوهرتان لهما لمعـــان شديد يجوز هذا الماء الى عجز الاسد ، فيدفعه فى البركة من فمه فيبهر الناظر ·

***

وغضب منذر لذلك أشد الغضب · ومضى ينصــــح لعبد الرحمن ، ويتناوله بالنقد جاهرا غير مبال · فأراد الناصر أن يرضى الناس · فبنى مسجد الزهراء وحشد له ألف عامل · وفرشه بالرخام المرمرى وجعل فى وسطه فوارة يجرى فيها الماء ·

وعندما وقف منذر على المنبر بعد ثلاثة أسابيع انقطعت فيها الصلاة الجامعة قرع الناصر ، وقال انه انصرف الى الزخرفة والبنـــــاء عن غزو الاعداء ، ومغالبة الفرنجة · وبدأ بالآية الكريمة : « أتبنون بكل ريع آية تعبثون · وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون · واذا بطشتم بطشتم جبارين فاتقوا الله وأطيعون ·· »

وظل منذر يردد معانى الايغـال فى الترف وحب البناء والاقامة ، والاعراض عن الجهاد حتى دمعت عينا الناصر · وان كان قد عتب على منذر تقريعه · ولكن « النــاصر » كان يقــدر الامام قدره ، ويرى له مكانته وعدله ، فقد ذهب المنافقون يغرونه بعزل منذر فرفض · وقال : « أمثل منذر فى فضله وورعه وعلمه يعزل فى ارضاء نفس ناكبة عن الرشد ؟ انى لاستحى من الله ألا أجعل بينى وبينه فى صلاة الجمعة شفيعا مثــــل منذر فى ورعه وصدقه » ·

والتف النـــاس حول منذر الذى عاد الى بيته فى نفس الطريق · وأخذوا يخوفونه غضب الخليفة · فقال لهم فى بساطة : ان رضا الناس لا يوازى غضب الله · وأن سطوة الله أعظم من سطوة أمير المؤمنين ·

وقيل له لو التمست رسولا للخليفة ليزيل ما فى نفسه ، فضحك ابن سعيد وقال : ان معى ربى سيهدين ·

وذهب القاضي الى بيته حيث لا يخرج منه الا ليؤدى الصلاة · واستدعاه الناصر لمقابلته : فلبس رث الثياب وأردأها · ودخل عليه مجلس الذهب حيث دبج بأصناف الديباج وفاخر الرياش ·

وجلس ابن سعيد فى آخر المجلس ، فأومأ اليه الناصر أن يقترب فقال : يا أمير المؤمنين انما يقعد الرجل حيث ينتهى به مجلس ولا يتخطى الرقاب ·

وكان منذر مطرقا وهو يتحدث · فقال له الخليفة : ما تقول فى هذا القصر العظيم ؟ ورفع رأسه لأول مرة · وقلب النظر فيما حوله ، فى الصرح الممرد من قوارير الذهب والفضة · وأجاب :

ذرنى ومن خلقت وحيدا · وجعلت له مالا ممدودا · وبنين شهودا ، ومهدت له تمهيدا · ثم يطمع أن أزيد · كلا انه كان لآياتنا عنيدا · سأرهقه صعودا » ·

وبلغ الأمر من ذلك أن خاف ابن طاووس · وكان يجلس الى جواره أن يأخذه غضب السياف · فقال : فضممت ثيابى خوف أن ينالنى دمه ·

ورجع القاضى الى بيته · وجاء من أسر اليه بأن الناصر أمر بنقض سقف القبة واستبدال قوارير الذهب والفضة بقوارير الآجر وأمر بهدم التماثيل فى مجلس الذهب ·

هذه هى الصورة التى ترسمها كتب التاريخ لمنذر بن سعيد قاضى الاندلس الشخصية البارعة الجريئة التى عرفت ببلاغة الخطابة وعدالة الحكم وقوة الحجة · وعمق الفهم · والفقيه الذى طوف بلاد المشرق حيث تلقى العلم والفقه ونبغ فى فهم الأدب والتاريخ وتذوق الشعر والفنون المختلفة · والمجاهد الذى هاجم الصليبية فى الاندلس كله ·

وقد كان منذر مفطوما عن الشهوات عزوفا عن الترف والاهواء · قد جعل الله عقله أكبر من عاطفته · فبهر الناس بخلقه ورجولته ونزاهته · حتى لقد ألزم «الناصر» الحق مرات عدة ·

لقد كان منذر مثلا للأئمة الاول الذين عرفتهم عصور الاسلام فى قوته وازدهاره مثلا فى النصح والتسديد ·· وقول الحق · وخشية الله وحده ·

وكان الى ذلك حاضر البديهة جيد النادرة لبقا · حلو العبارة · فيه من روح النبوة مسحة · ومن أسلوب الرسول شبه ·

وقد عرف بالاجتهاد ولم يتقن فى الافتاء غير مذهب مالك · وأفسح للناس فى الرأى وبسط وجوه الشريعة ·

ولى القضاء فى عهد عبد الرحمن الناصر واستمر الى أن مات فلما ولى ابنه الحكم استعفى وقد أثنى عليه المؤرخون وخاصة الفتح بن خاقان · لم يحفظ عليه مدة ولايته قضية جور · وله كتب فى القرآن والسنة والرد على أهل الاهواء ·

توفى بقرطبة عام ٩٤٦ م ·

« أردت عمرا وأراد الله خارجه »

عمرو بن العاص

قال عمر بن الخطاب لعمرو بن العاص :

لقد عجبت فى ذهنك وعقلك . كيف لم تكن من المهاجرين الأولين .

فقال عمرو :

وما أعجبك ياعمر فى رجل قلبه بيد غيره · لا يستطيع التخلص منه الا الى ما أراد الذى هو بيده ·

قال عمر : صدقت ·

* * *

أسلم عمرو متأخرا · وحين خرج من مكة يريد المدينة وجد فى طريقه خالد بن الوليد وعثمان بن أبى طلحة ، ذاهبين لنفس القصد · فدخل ثلاثتهم على الرسول · واقترب منه عمرو وقال : يارسول الله انى أبايعك على أن تغفر لى ما تقدم من ذنبى · فقال النبى : ياعمرو بايع ، فان الاسلام يجب ما قبله ، والهجرة تجب ما قبلها · ثم قال : اسلم الناس وآمن عمرو بن العاص ·

وكان عمرو سفير قريش الى النجاشى مع عبد الله بن أبى ربيعة يطلبان اليه أن يسلم المسلمين المهاجرين · وقد حملا معهما الهدايا والعطايا · ورفض النجاشى · كما اشترك فى عدد من المعارك ضد المسلمين وهو جندى محارب عاش على عصبية البيئة متمثلة فى أبيه العاص بن وائل حتى ذهب هؤلاء القوم الأقرام العتاة . . هنالك تكشفت أمامه وأمام زملائه حقائق الأمور . وذهبت الأوهام من النفوس .

وقد قلده النبى « اللواء » فى غزوة ذات السلاسل وجعله على ثلثمائة من سراة المهاجرين والانصار من بينهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة · وقد قام بعمليات حربية ليلية امعانا فى التستر وكان يكمن بالنهار ويسير بالليل · وقد منع قومه من الاصطلاء بالنار حتى لا يكشف أمرهم ·

وهو أول من استنفر المرأة مع زوجها لتدفعه فى قوة الى الحرب ،

واشترك فى حروب الردة فى اخضاع قبيلة قضاعة · كما عقد له عمر اللواء على الجيش الذى سار لفتح فلسطين فتوالت انتصاراته على الروم

فى جميع المواقع التى خاض غمارها • وأظهر بسالة فائقة يوم اليرموك • ويوم اجنادين •

وعندما بعثه عمر فى الغزو قال : انى سهم من سهوم الاسلام وأنت بعد الله الرامى بها والجامع لها فانظر أشدها وأخشاها وأفضلها فارم بها شيئا ان جاءك من ناحية من النواحى •

* * *

وعمرو هو الذى طلب من الخليفة عمر فتح مصر • ووصفها له بأنها أكثر الأرض أموالا . وكان له بها خبـــرة سابقة عندما قدم اليها فى الجاهلية • ولقد ظل يهون على الخليفة الأمر حتى أذن له • فلما أوشك أن يمضى أنذره بأنه قد يرسل له خطابا يطلب منه فيه الرجوع عن فتح مصر • فاذا جاءه الخطاب قبل أن يبلغ حدودها فليرجع • وكان قد أرسله فى أربعة آلاف من أهل اليمن •

فلما كان عمرو فى بعض الطريق قرب رفح وقد أوشـك أن يدخل مصر وافاه رسوله بخطاب منه فأرجأ تسلمه حتى دخل الفرما وكان عثمان قد أغرى عمر باعادة عمرو قائلا ان به جرأة وحبا للامارة • فلما تسلمه فرح لانه كان قد جاوز الشرط الذى اشترطه عليه وأوغل فى البلاد .

وقد بلغ العريش عام ١٨ هـ ، فلما بلـــغ الفرما حاصرها أكثر من شهر لما كانت عليه من قوة ومنعة • ثم دانت له فبارحهـــــا الى القنطرة فالصالحية حتى دخل بلبيس ولما وجد ابنة « المقوقس » فى بلبيس ردها الى والدها معززة فأعجب هذا التصرف أهل مصر •

كانوا أربعة آلاف أولئك الذين ساروا بامرته يقطعون الصحراء •• ويدخلون مصر ويحاصرون حصن بابليون وقت فيضان النيل • فلما طالب الخليفة بالمدد أمده بأربعة آلاف على رأسهم الزبير بن العوام والمقـداد بن الأسود وعبادة بن الصامت ومسلمة بن مخلد .

وقد فتح حصن بابليون الذى ظل يقاوم سبعة أشهر ، ثم سار الى الاسكندرية • ثم فتح برقة لتأمين حدود مصر الغربية ثم امتد نفوذه الى بلاد النوبة • ووقع اختياره على مدينة الفسطاط • وأعاد حفر الخليج الذى كان يصل النيل بالبحر الاحمر •

وعامل القبط بالتسامح ، وحفظ لهم جميل مدهم له بالمســاعدة وتيسير مهمة الفتح ، وبدا يبرز المجتمع فى صورة تلاق واندماج كاملين

وعندما ولى عثمان الخلافة عزل عمرو بن العـــــاص عن ولاية مصر وولاها عبد الله بن سعد بن أبى سرح •

ثم انضم عمرو الى معاوية • وهو صاحب خدعة رفع المصاحف على أسنة الرماح. ونجحت حيلته. وهو أيضا الذى غرر بأبى موسى الأشعرى

ودفعه الى الاقرار بأن يعزل كل منهما صاحبه وجعل الأمر شورى للمسلمين ، فلما وافق أبو موسى أغراه بأن يتحدث هو أولا فقام الأشعرى فعزل عليا ، وقام عمرو من بعده فثبت معاوية • وقد أعاده معاوية الى مصر مكافأة على صنيعه •

* * *

وعندما أراد الخوارج قتل الثلاثة : على ومعاوية وعمرو وحددوا لذلك موعدا تصادف أن أصيب فى ذلك الصباح بوعكة مفاجئة ، فندب (خارجة بن حذافة) عنه لصلاة الفجر فظن الخوارج أنه هو فأصابوه •

وذهبت مثلا « أردت عمرا وأراد الله خارجة » .

ووصف رجل عمرا فقال « رأيت رجلا ربعة قصير القامة • وافر الهامة • أدعج أبلج • عليه ثياب موشاة • كأن به العقيان • تأتلق عليه حلة وعمامة وجبة » •

ومن قوله : « اياكم وخلالا أربعا : فانها تدعو الى النصب بعد الراحة والى الضيق بعد السعة والى الذلة بعد العزة • اياكم وكثرة العيال • واخفاض الحال • وتضييع المال • والقيل بعد القال ، فى غير درك ولا نوال • ثم لا بد من فراغ يزول اليه المرء فى توديع جسمه » •

ومن اقواله التى تمثل بلاغته فى وصف مصر :

لقد تدلت الجوزاء • وزلت الشعرى • وأقلعت السماء • وارتفع الوباء • وقل الندى • وطاب المرعى • ووضعت الحوامل • ودرجت الشمائل • وعلى الراعى بحسن رعيته •

«واربعوا خيلكم واسمنوها • وصونوها • واكرموها • فأنها جنتكم من عدوكم وبها مغانمكم وأنفالكم » •

وقد وصف عمرو بالدهاء السياسى • وكانت له موهبة عسكرية واضحة ، وفطنة سياسية وضحت فى كل تصرفاته • وقد مكنه ذلك من الانتصار على جيش الروم الذى كان يبلغ عشرين ألفا بفضل الصبر والقيادة المنظمة .

ومن دهاء عمرو وحذقه أنه ابقى رسول المقوقس لديه فترة من الزمن حتى يرى قوة العرب وصلابتهم ، فلما طاب الرسول وفدا يتحدث اليهم أرسل لهم عمرو عشرة نفر أحدهم عبادة بن الصامت وكان طويلا مهيبا • وأمره أن يكون متحدث القوم ، فلما دخلوا على المقوقس اهتز لمنظر عبادة وهاب سواده فطلب تنحيته فأصروا على أنه هو أميرهم ومحدثهم •

اعتزال الولاية للمرة الأولى عام ٢٧ هجرية عندما أشرك الخليفة عثمان معه عبد الله بن سعد ، فلما بدأ الخلاف بين معاوية وعلى ، ووقف الى جانب معاوية أعطاه مصر طعمة ، أى أن يكون له خراجها ، وذلك بعد ان فتحها معاوية للمرة الثانية وضمها الى حكومة دمشق عام ٣٨ وكانت قد تابعت حكومة الكوفة ولم يبق بها الا سنوات معدودة فقد توفى عام هجرية •

لست بخير من أحدكم . ولكنى أثقلكم حملا .. ألا لا طاعة لمخلوق فى معصية « الخالق » .

عمر بن عبد العزيز

ما أبعد الفرق بين شبابه وشيخوخته ، أشبج بنى أمية هذا الذى من ولد عمر فى وجهه علامة يملأ الارض عدلا .

كان يلبس الرقيق من الثياب . ويمشى المشية العمرية المعروفة . فلما وصل مقام الخلافة كان يلبس الخشن من الثياب . ويأتدم بالملح والزيت . ويقوم الى الصلاة فيطيل القيام . ويركع فيطيل الركوع .

كان فى شبابه أنيقا يرخى شعره ويسبل ازاره ويتبختر فى مشيته . وكان مترفا غنيا . عاش فى مصر فى دار الامارة بين عظمة الملك وجلال السلطان .

وكان يشترى مطرف الخبز بثمانمائة درهم . ويقول ما أخشنه. ربما كان يلبس ثوبا فيراه الناس فيه الا خيل اليه أنه قد بلى . وكان يتطيب برائحة عرفت به فيها القرنفل والعنبر .

وعندما سافر من مصر الى المدينة كانت هناك عشرات من الجمال تحمل ثيابه ، وكان يحذق الغناء ويحبه .

وفى سن الأربعين ولى عمر الخلافة بكتاب من سليمان بن عبد الملك كتبه عند موته . وهنا تجىء نقطة التحول فى حياة عمر الذى كان معروفا بالوقار والخلق . ولم يكن على تجمله صاخبا أو عابثا .

وفى لحظة واحدة تحول عمر من الترف الى الزهد ، فبعثر ملبسه طعامه ومنزله . وبدا فى صورة من الورع ، قل أن عرفت فى التاريخ الا للقلائل .

اشترى جبة من الصوف بثمانية دراهم . وتغير منه كل شىء الا مشيته التي وكل بها تابعه « مزاحم » ويقول له : « ذكرنى اذا رأيتنى امشى » فيذكره فيخلطها ثم لا يستطيع الا اياها فيرجع اليها .

زهد عمر فى مراسم الخلافة : رد المراكب المطهمة . ورفض السرادق ورفع فراش الخلفاء . وضمه الى بيت المال . وعاد الى نعله وحصيره . أتى له بالجوارى فخيرهن وردهن الى أهلهن . وحملهن الى البلاد . بل انه طلب من زوجته فاطمة أن ترد ما معها من مال وحلى الى بيت المال .

وزفض عمر فى لومة الامة أن يقيل فى الظهر قبل أن يرد المظالم فرد مظالم سليمان بن عبد الملك كلها ، وأعاد الحقوق الى أربابها ، وتنازل عما ورثه · وخرج عما كان تحت يده من قطائع وضياع · فحرق سجلاتها وأعادها الى المسلمين ·

وفرح الناس ببيعة عمر وغضب بنو أمية · فقد قطع عنهم الاعطيات الضخمة التى كانوا يحصلون عليها من الخلفاء ·

وضرب المثل فى قوة الشخصية عندما وقف أمام « البيت الأموى » كله فلم يكن له خصم سواهم ، فقد ألغى اعطية ٢٠ ألف دينار ، كان أمر بها سليمان لعتبة بن العاص · فلما جادله قال له : عشرون الف دينار تغنى أربعة آلاف بيت من المسلمين وأدفعها الى رجل · والله ، والله ما الى ذلك من سبيل ·

وشكت عمته من قطع الاعانة التى كانت تحصل عليها فقال لها : يا عمة انهم كانوا يعطونك من مال المسلمين · وليس ذلك المال لى · ولكنى أعطيك مالى ان شئت · ورد مظالم بنى أمية كلها ·· ما من رجل جاء له فى مظلمة اغتصبت الا ردها اليه ببينة يسيرة . وقصة روح بن زنباع الذى كان الوليد قد أقطعه حوانيت بحمص معروفة · فقد رفض روح أن يسلمها ، فأرسل عمر من يطلب اليه تسليمها أو يأتيه برأسه ·

ودخل اليه أهله يسألونه أن يجرى عليهم ما كان جاريا عليهم من قبل من أعطيات · فقال لهم : والله ما هذا المال لى · ومالى الى ذلك من سبيل ·

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل ان عمرا جمع بنى مروان وطالبهم بشطر أموالهم وتقديم نصفها لبيت مال المسلمين · فلم يجب أحد منهم وقال أحدهم : والله لا نخرج من أموالنا التى صارت الينا من آبائنا فنفقر أبناءنا ونكفر آباءنا حتى تزايل رءوسنا أجسادنا . فهددهم عمر واقسم لئن عاش ليردن الى كل ذى حق حقه ·

وكأنما كان موقف عمر هذا من أهله هو نهايته · فقد دفعهم الى أن يقتلوه على هذه الصورة التى مات بها · حين دسوا له السم فى طعامه ·

يصف عمر نفسه فيقول : كانت لى نفس تواقة · فكنت لا أنال شيئا الا تاقت الى ما هو أعظم منه · فلما بلغت نفسى الخلافة تاقت الى الآخرة ·

***

بدل عمر حياة الناس · وأسعد الناس بعدالته · وتحول المجتمع فى عهده عن اللهو والترف ، حتى كان الناس يسأل بعضهم بعضا عن الخير والصلاة والصيام ·

ورد فى الاخبار أن الوليد كان صاحب بناء وعمران ، فكان الناس يلتقون فى زمانه فيسأل بعضهم بعضا عن البناء والضياع · وكان سليمان

صاحب طعام وزواج فكان الناس يسأل بعضهم بعضا عن الطعام والزواج والطلاق ·

وكان عمر بن عبد العزيز صاحب عبادة فكان الناس يسأل بعضهم بعضا عن الخير والصلاة والصيام ·

وقد رد عمر المجاهدين عن الثغور · وأقنع الخوارج · وأبطل لعن على على المنابر ، وأقام الشعراء على بابه لا يأذن لهم بالدخول ·

كان يقول لمن عنده : من صحبنا فليصحبنا بخير والا فلا يقربنا · يرفع الينا حاجة من لا يستطيع رفعها · ويعيننا على الخير بجهده · ويدلنا على الخير ما نهتدى اليه ، ولا يغتاب أحدا ولا يتعرض لما لا يعنيه ·

وقد بعث واليه فى مصر يقول ان الناس يدخلون فى الاسلام ، وأن هذا يؤثر على الخراج · ويسأله عن أمر الجزية ·

فقال عمر : ضع الجزية عمن أسلم قبح الله رأيك ، فان الله انمـــا بعث محمدا صلى الله عليه وسلم هاديا ولم يبعثه جابيا . ولعمرى لعمر أشقى من أن يدخل الناس كلهم فى الاسلام على يديه · وأنا وأنت حراثان نأكل من كسب أيدينا ··

وكان كل مساء يستمع الى حوائج الناس ويستعمل الشمع ، فاذا حدثه أحد فى شأن من شئونه الخاصة دعا بسراجه من بيته ·

قيل وفد عليه بريد من بعض الآفاق فانتهى الى بابه ليلا · واستأذن عليه فأذن له · ودعا بشمعة غليظة فأوقدت · وجعل يسأله عن أهل البلد حتى اذا فرغ عمر من مساءلته قال له : يا أمير المؤمنين : كيف حالك فى نفسك وبدنك وكيف عمالك · فنفخ عمر الشمعة فأطفأها وقال : ياغلام على بسراج · ثم قال له سل عمـــا أحببت · ياعبد الله ان الشمعة التى رأيتنى أطفأتها ، من مال الله ومال المسلمين فكانت تلك الشمعة توقد بين يدى فيما يصلحهم وهى لهم · فلما صرت لشأنى وأمر عيالى ونفسى أطفأت نار المسلمين ·

وكان طعامه ملحـــا وزيتا · وعندما ولى الخلافة كانت غلته أربعين ألف دينار ولم تتجاوز عند وفاته مائتى دينـــار · قال مالك بن دينار : الناس يقولون مالك بن دينار زاهد · انما الزاهد ابن عبد العزيز ، أتته الدنيا فتركها ·

وكان يصلى صلاة وصفها أنس خادم رسول الله بقوله : ما صليت خلف امام بعد رسول الله أشبه بصلاة رسول الله من امامكم هذا ·

ومن قوله : لست بقاض ولكننى منفذ · ولست بمبتـــدع ولكنى متبع · لست بخير من أحدكم · ولكنى أثقلكم حملا ، ألا لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ·

وقيل دخل على عبد الملك بن مروان يوما وكان معه بنوه · فقال له

عبد الملك وهـــو يومئذ الخليفة : كيف نفقتك ؟ قال عمر : الحسنة بين السيئتين . قال عبد الملك فما هما . قال عمر : « والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما » .

***

آلت اليه الخلافة بكتاب من سليمان . فلما دفن سليمان نحى عنه حامل الحربة وذهب الى المسجد فخلع بيعة الناس وقال لهم انهم قد بايعوا دون مشورة. وأباح لهم أن يختاروا لانفسهم ، فصاح الناس «قد اخترناك يا أمير المؤمنين » وجمع اليه صحابته والعلماء . وقال لهم : من أراد أن يصحبني فليصحبني بخمس . يدلني من العدل الى ما لا أهتدى اليه . ويكون لي على الخير عونا . ويبلغني حاجة من لا يستطيع ابلاغها . ولا يغتاب عندى أحدا . ويؤدى الأمانة التي حملها مني ومن الناس .

وعرف عمر بالبراعة واللباقة في الحديث . وآية ذلك أنه جادل الخوارج وهم من هم في الجدل فأقنعهم فعاهدوه ان لا يخرجوا عليه .

وفي أول عهده خرج شوذب الخارجي فكتب اليه عمر يقول :

بلغني انك خرجت غضبا لله ورسوله . ولست أولى بذلك مني فهلم الى اناظرك وان كان الحق بأيدينا دخلت فيما دخل فيه الناس . وان كان في يدك نظرنا .

فكتب الى عمر يقـــول : قد أنصفت . وقد بعثت اليك رجلين يدارسانك ويناظرانك .

وأرسل الى عمر مولى لبني شيبان حبشيا اسمه عاصم . ورجلا من بني يشكر وناقشهما عمر وسمع اليهما ، واستمعا له . وقال له عاصم : اشهد أنك على حق .

وقد مكن عمر من الفوز عليهما أنه كان عالما تلقى الفقه باكرا على أنس ابن مالك وجماعة من الصحابة . ومن ذلك قوله : لقد رأيتني وأنا بالمدينة غلاما مع الغلمان ثم تاقت نفسي الى العلم بالعربية والسفر فأصبت منه حاجتي وما كنت أريد .

وقد ابطل عمر ما استحدث بعض خلفاء بني أمية .

وعندما جاءته الوفاة رفض أن يكتب لأبنائه شيئا . وجعل ذلك في مقام ما فعل بالنسبة لقومه حتى أوقف ما كان يجرى عليهم من بيت المال.

ولم تطل أيام خلافته اكثر من عامين وخمسة اشهر ، ومات في رجب عام ١٠١ هـ .

لو كان بينى وبين الناس شعرة : ما انقطعت أبدا : اذا شدوهـا أرخيتها واذا أرخوها شددتها ٠

معاوية بن أبى سفيان

قال ابن طباطبا يصف معاوية :

كان عاقلا فى دنياه لبيبا ٠ عالما حليما ٠ مالكا قويا ٠ جيد السياسه حسن التدبير بأمور الدنيا ، عاقلا حكيما ، فصيحا ، بليغـا ٠ يحلم فى موضع الحلم ٠ ويشتد فى موضع الشدة الا أن الحلم كان أغلب عليه ٠ وكان كريما باذلا للمال محبا للرياسه شغوفا بها .

كان يفضل على اشراف رعيته كثيرا ٠ فلا يزال اشراف قريش يفدون عليه بدمشق فيكرم مثواهم ٠ ويحسن قراهم ٠ ويقضى حوائجهـم ٠ ولا يزالون يحدثونه أغلظ الحديث ويجبهونه أقبح الجبه ٠ وهو يداعبهم تارة ويتغافل عنهم تارة أخرى ، ولا يعيدهم الا بالجوائز السنية والصلات الجميلة ٠

***

ويروى المسعودى أن معاوية كان اذا انفتل من صلاة الصبح جلس الى القاص حتى يفرغ من قصصه ٠ ثم يدخل فيفتح مصحفه ويقرأ ثم يدخل الى منزله فينظر فى بعض أمره ثم يصلى أربع ركعات ٠ وفى الضحى يخرج الى مجلسه فيأذن لخاصته فيحدثهم ويحدثونه ويدخل عليه وزراؤه فيكلمونه فيما يريدون من يومهم الى العشى ٠ ثم يؤتى بالغداء الأصفر وهو فضـلة من عشـائه من جدى بارد أو ما يشبهه ٠ ثم يخرج كرسيه الى المسجد فيسند ظهره الى المقصـورة ويجلس على الكرسى ويتقدم اليه الناس : الضعيف والأعرابى والصبى والمرأة ومن لا أحد له . فيقول ظلمت فيقول : أعزوه . ويقول : عدى على . فيقول: ابعثوا معه . ويقول صنع بى . فيقول: انظروا فى أمره ٠ حتى اذا لم يبق أحد دخل فجلس على السرير ٠ فيقول : ائذنوا للناس على قدر منازلهم . ولا يشغلنى أحد عن رد السلام فيدخل الناس فيقول لهم ارفعوا الينا حوائج من لا يصل الينا ٠ ثم يتكلم الناس فاذا قيل استشهد فلان ٠ يقول : افرضوا لولده ٠ واذا قيل غاب فلان عن أهله ٠ يقول : تعهدوهم واقضوا حوائجهم ٠

ثم يؤتى بالغداء ويحضر الكاتب فيقـوم عند رأسه ٠ فيمد يده فيأكل لقمتين أو ثلاثا ٠ والكاتب يقرأ كتابه ٠ ثم يرفع الغداء ٠ وينصرف الى منزله فلا يطمع فيه طامع حتى يخرج فيصـلى العصر ٠ ثم يجلس على

سريره ويؤذن الناس على منازلهم . ويؤتى بالعشاء فيفرغ منه مقدار ماينادي بالمغرب فيخرج فيصليها ثم يصلى بعدها أربع ركعات يقرأ فى كل ركعه خمسين ايه ، يجهر تارة ويخفت اخرى . ثم يدخل منزله حتى ينادى للعشاء الاخرة فيخرج فيصلى . ثم يؤذن للخاصة والوزراء والحاشية فيؤامره الوزراء صدرا من ليلتهم ، ويستمر الى ثلث الليل فى اخبار العرب وأيامها وملوكها وسياستها لرعيتها . ثم تأتيه الطرف الغريبة من عند نسائه من الحلوى وغيرها من المآكل اللطيفة ثم يدخل فينام ثلث الليل . ثم يقوم فيقعد . فيحضر الدفاتر التى فيها سير الملوك وأخبارها والحروب والمكايد . فيقرأ ذلك عليه غلمان مرتبون .

* * *

لايستطيع أحد أن ينكر أن «معاوية» علم من أعلام الاسلام حفر اسمه فى سجل التاريخ فقد أمضى اكثر من اربعين عاما يحكم الشام حاكما وخليفة ومهما قيل عن أسلوبه ومرونته فانه لون من ألوان البطولة الاسلامية فى تطورها بعد النبوة وانتقالها من مرحلة الخلافة الراشدة التى تتمثل فى عمر وعلى الى مرحلة الملك والسلطان والخلاف بين «شخصية على» و«شخصية معاوية» هو خلاف طبيعى . فليس فى تاريخ أى حقبة مهما تقاربت بطولات متماثلة . فان بين أبى بكر وعمر خلاف فى الاسلوب والطبيعة والشمائل بالرغم من أنهما عاشا فى عهد واحد ، والتقيا على معين واحد هو محمد صلى الله عليه وسلم . اذن فلا بد أن يكون هناك خلاف فى اساوب الحكم بين على ومعاوية .

فقد كان على يعيش فى صورة ابى بكر وعمر وهى صورة أربعين عاما مضت منذ انتقل الرسول الى الرفيق الأعلى . أما معاوية فكان يعيش فى الواقع . فى الزمن الذى تطور بعد أن أذن عثمان لكبار الصحابة يسيحون فى الأرض ويكونون الثروات .

ولم يكن بين على ومعاوية هزائم وانتصارات ، وانما هو ناموس الحياة الذى لا يتخلف فالناس هم الناس فى كل زمان ومكان طلاب منفعة وسلطان ، فاذا أراد لهم على أن يعودوا مرة أخرى الى زمن عصرى كان ذلك عسيرا . وكان كل من حول على يطمعون فى السلطان والملك وعلى لايريد الا نماذج معينة من أهل العدل مما حول أصحابه الى خصوم . انتقلوا من معسكره الى معسكر معاوية فأعطاهم . أما معاوية فكان يقطع الألسنة بالعطاء ويرد الخصوم بالهبات . ومع ذلك فقد ظل شأن الناس معه على حد قول القائل : قلوبهم مع على وسيوفهم مع معاوية .

ويصور معاوية عوامل انتصاره على على فى قوله : أعنت على «على» بأربع خصال كان رجلا لايكتم سرا وكنت كتوما لسرى . وكان يسعى حتى يفاجأه الأمر مفاجأة . وكنت أبادر الى ذلك . وكان فى أخبث جند وأشدهم خلافا . وكنت أحب الى قريش منه .

* * *

ولعل أبرز صور معاوية فى فهمه العميق للأمور ، ومسايرته للزمن، ويقظته وتطوره وقدرته على الجرى مع الأحداث، ومواجهة الواقع ماروى عن

لقائه مع عمر بن الخطاب عندما قصد الى بيت المقدس لتسلمه من الرومان ·

لما قدم عمر بن الخطاب تلقاه معاوية فى موكب عظيم . فلما دنا منه قال له : انت صاحب الموكب العظيم ·

قال : نعم يا أمير المؤمنين .

قال : مع ما يبلغنى من وقوف ذوى الحاجات ببابك .

قال نحن بأرض جواسيس العدو بهـــا كثير · فيجب أن نظهر من عز السلطان مانرهبهم به · فان أمرتنى فعلت وان نهيتنى انتهيت ·

قال عمر لمعاوية : ما سألتك عن شيء الا تركتنى فى مثل رواحب الفرس ان كل ما قلت حقا ، فانه لراى أريب . وان لم يكن فهو خدعة أديب ·

قال : فمرنى يا أمير المؤمنين · قال : لا آمرك ولا انهاك ·

* * *

والحق أن معاوية أوتى شخصية بارعة غاية البراعة وصفها هو فى قوله :

كأنما بينى وبين الناس شعرة : اذا شدوها أرخيتها . واذا ارخوها شددتها ولقد كان معاوية يستلهم مايسمى بالمعرفة النفسية ومداخل القلوب يعرف مقاتل الناس والنغمة التى يحبونها · ويستعمل ذكاءه على أوســع نطاق فى كسب القلوب · وقد كان للمال ـ ولا يزال ـ سحر خطـير فى ذهاب الخصومات واحلال الود محل البغض . ولم تكن عاطفة القلوب المجردة لتكفى الناس فى ذلك الزمن الذى تفشت فيه المطامع .

وقد استطاع معاوية بأسلوبه وحكمته ومرونته أن يوطد الملك لبنى أمية أكثر من مائة عام · وكان يقتسم السلطة بينه وبين حكامه · فيقول لزياد والى العراق : لاينبغى ان نسوس الناس بسياسة واحدة فيكون مقامنا مقام رجل واحد · ولكن تكون أنت للشدة والغلظـــة وأكون أنا للرأفة والرحمة فيستريح الناس بيننا ·

وكان ينخدع أحيانا للناس حتى يرى كأنه مصدق لما يقولون· وذلك كسبا لقلوبهم · وقد جاءه رجل من الكوفة · فقال له : ان داره قد حرقها واليه عبد الرحمن بن الحكم · وانها بمائة ألف درهم · وشـهد له بذلك شيخ آخر فأمر له بها · فلما خرجا أقبل معاوية على جلسائه ثم قال لهم :

أى الشيخين عندكم أكذب ؟

والله انى لأعرف داره · وما هى الا خصائص قصب · ولكنهم يقولون فنسمع ويخادعوننا فننخدع ·

وقد استمال بدهائه الداهية الأخير : عمرو بن العــاص ـ وكانت الصلة بينهما على أساس المنفعة · وقد منحته هذه الكياسة والمرونة عشرين

عاما قضاها فى الولاية قبل الخلافة فى دمشق فاستتب له الأمر ، وتمكن من القلوب •

وهو أول من اتخذ الحرس والحجاب والقصور . وحول الخلافة الى ملك وجعل ولاية العهد مشروعة من غير انتخاب • وأخذ البيعة قسرا لابنه يزيد •

وصفه عمر بقوله : فتى من قريش يضحك فى الغضب ولا ينال ماعنده الا على الرضى • ولا يأخذ مافوق رأسه الا من تحت قدميه •

وقد عرف عن معاوية : انه كان جميل الصورة • حـــلو الحديث • هادىء السمة أنيقا • لايغضب مهما حاول محدثه أغضابه • لايضع سيفه حيث يكفيه سوطه ولا يضع سوطه حيث يكفيه لسانه . وقد اتخذ كل وسيلة الى توطيد ملكه وسلطانه . وكانت شربة العسل التى يقدمها قضاء على خصمه حتى عرف عنه قوله : « ان لله جنودا منها العسل » •

ومن قوله : عجبت لمن يطلب أمرا بالغلبة وهو يقدر عليه بالحجة •

* * *

وقد واصل معاوية بعوث الجهاد والفتوح فبعث عبد الله بن سوار الى بلاد السند فيما يلى خراسان • ووصل المهلب بن أبى صفرة الى لاهور •

وغزا الدولة الرومانية برا وبحرا • وبلغ أسطوله ألفا وســـتمائة سفينة فتح بهـــا رودوس وبعض الجزر اليونانية • وأرســـل الشواتى والصوائف لحصار القسطنطينية وكان على رأس واحدة منها وارسل عقبة ابن نافع لفتح أفريقية •

وقد جدد شباب الدولة الاسلامية وأعانته حكمته وذكاؤه وتجاربه وقراءاته على أن يدير الملك ويرضى الناس ويحسن التصرف •

وقد توفى معاوية عن ثمان وسبعين ســـنة وأمضى تسعة عشر عاما خليفة وتوفى عام ٦٠ هـ •

« اياك والتبذير فان النوائب غير مامونة ٠ والحوادث غير مضمونة ٠ وهى من شيم الزمان » ٠

أبو جعفر المنصور

ما أحوجنى الى أن يكون على بابى أربعة نفر ٠ لايكون على بابى اعف منهم ٠ قيل له من هم ؟ قال : هم أركان الملك ولا يصلح الملك الا بهم ٠ كما أن السرير لا يصلح الا بأربع قوائم أما أحدهم فقاض لا تاخذه فى الله لومة لائم والاخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوى ٠ والثالث صاحب خراج يستقصى ولا يظلم الرعية ٠ فانى عن ظلمها غنى ٠ والرابع ثم عض على أصبعه السبابة ــ ثلاث مرات يقول فى كل مرة آه ٠ آه ٠ فقيل له : ومن هو يا أمير المؤمنين ؟ قال : صاحب بريد يكتب بخبر هؤلاء على الصحة ٠

* *

أبو جعفر المنصور : ثانى الخلفاء العباسيين ٠ وألمع الرجال الذين حملوا على أكتافهم الحركة التى أطلق عليها «الرضا من آل محمد» والتى كانت تهدف الى التخلص من حكم الامويين ٠ والذين تحقق لهم فيما بعد أن يقيموا هذا السلطان الجديد ٠ وان يشترك فيها بجهد ضخم بارز لايمكن أن ينسى حين يذكر سلطان العباسيين فقد حكم اثنين وعشرين عاما ٠ وطد خلالها الملك لاولاده واحفاده .وقضى على خصوم الدولة وبنى المدن وأنشأ القصور ٠ وجمع المال ٠ وقد عرف المنصور بالرجولة القوية القاسية التى لاتعرف اللهو ٠ ولا الترف ، وكان أسمر اللون نحيفا خفيف العارضين ٠ وقورا يلبس الخشن من الثياب ، حسن الخلق فى الخلوة ٠ ومن أشد الناس احتمالا لما يكون من عبث أو مزاح ٠ فاذا لبس ثيابه وخرج الى المجلس العام تغير لونه ، واحمرت عيناه ، وتغيرت أوصافه ٠ حتى لقد روى عنه أنه قال لبنيه : « اذا رأيتمونى قد لبست ثيابى وخرجت الى المجلس فلا يدنون أحد منى مخافة أن أصيبه بشىء » ٠

لقد كان بخيلا لايبسط يده بدرهم واحد فى غير موضع ٠ وكان يحاسب رجاله على المال القليل والوفير ٠ حتى سمى «أبو الدوانيق» مؤمنا بأن من قل ماله قل رجاله وقوى عليه عدوه ٠ وكان لايعطى الا اذا كان ف العطاء رجاء وقد مكنته طبيعته هذه الجادة الصارمة من بناء الدولة الجديدة وأعانه على ذلك الزمن الطويل الذى عاشه، وأعطته صحته واستقامته هذا العمل الطويل فقد كان يكره المحرمات ، مفطوما عن الشهوات ٠ ولم يعرف عنه ماعرف عن خلفاء بنى أمية ولا خلفاء بنى العباس ولا ماعرف عن أحفاده الهادى والرشيد والمأمون من نزوات ومطامع ورغبات فى الترف واللهو ٠

وكان يعمل وقته كله حتى أرهق نفسه وأرهق من حوله ، الى أن أغروا طبيبه أن يشير عليه بشرب النبيذ دواء وعلاجا • عسى أن يشغله الشراب عنهم • فما لبث المنصور بعد يومين أن أحس تثاقلا عن الصلاة فلما أصبح دعا بما عنده من شراب فأمر باراقته • ثم قال : لاينبغي لمثلي أن يشرب شيئا يشغله ، وهذه الصورة تبرز خلقا من خلق المنصور هو قوه ارادته الضخمة التى دفعته الى أن يصرف نفسه عن الشيء ولا يدعه يؤثر فيه أو يفرض عليه •

..

كان شغوفا بالبناء ، يرى بناء الدولة من بناء العمارة • وله ذوق رفيع اعترف به كل من شاهد أو سمع أو قرأ تفاصيل النظام الذى رسمه لبناء «بغداد» وقصر الخلد والقبة الخضراء • وبنى الرصافة لابنه وبنى الثكنات .

وكان يقف بنفسه من الصباح الباكر الى المساء المتأخر ، لا يجهد ولا يضيق بالملاحظة والأمر • ولم يقف أياما ، وانما وقف شهورا • لأنه كان يبنى مدينة ضخمة هى بغداد •

وقد أعانه على ذلك انقطاعه عن الشهوات • وقوة ارادته • وصلابة بنيانه وايثاره الخشن من الطعام واللباس • وكان ورعا ، يقوم الليل •• ويسبغ الوضوء ويصلى ماشاء الله أن يصلى •

..

وقد وصف المؤرخون يومه بأنه كان يشغل صدر نهاره بالأمر والنهى والولايات والعزل وشحن الثغور والأطراف • فاذا صلى العصر جلس لأهل بيته ، فاذا صلى العشاء الآخرة نظر فيما ورد عليه من كتب الثغور والأطراف وشاور سماره •

فاذا مضى ثلث الليل قام من فراشه فأسبغ وضوءه وأقام فى محرابه حتى يطلع الفجر ثم يخرج فيصلى بالناس ، ثم يدخل فيجلس فى ايوانه • وقد أحب التنقل ، وزار أغلب انحاء الامبراطورية فى آسيا ، ذهب الى خراسان وفلسطين والشام وتعددت زياراته الى مكة •

وقد ضرب المثل بحكمته وحرصه على المال ، حتى انه رأى فى داره قنديلا معلقا وكان الموضع بين الضوء والظلمة • فأمر بأن يطفأ • وقال لايعاد هذا المصباح الى هذا الموضع الا وقت الحاجة من الليل أو من آخر النهار •

وكان حريصا على تحرى العدل فى الحكم راغبا فى أن يصل الى ضمائر الرعية لدفع الظلم عنها .

وقد عرف بضبط النفس والقدرة على مواجهة خصومه • فقد روى عنه انه وقف يخطب فقام رجل ، وقال ياأمير المؤمنين : اذكر من أعنت فى ذكره فقال له مرحبا : لقد ذكرت جليلا وحذفت عظيما • وأعوذ بالله أن

أكون ممن اذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالاثم والموعظة منا بدت ،ومن عندنا خرجت ، وأنت يا قائلها فأحلف بالله ما الله أردت • انما أردت أن يقال قام فقال ، فعوقب بضر مأخوذا بها • ويلك واياكم معشر الناس وأمثالها •

***

ولى الخلافة بعد وفاة العباس فوطد الملك وقاوم العلويين وردهم وحاربهم وقد مهد بذلك لابنه المهدى وقد ترك له الأموال المصادرة وأوصاه بردها الى أصحابها ليكسب مودتهم •

وقد اعتل المنصور وهو فى طريقه الى الحج • ومات قبل أن يبلغ مكة وقيل ان الفرس كبا به فوق ظهره ودفن ببئر ميمون •

هذه اللمحات النفسية للمنصور فى بعض تصرفاته وشمائله تعطى صورة الرجل القوى الثابت القلب • وهو الرجل الذى قتل أبا مسلم الخراسانى بعد أن رأى أنه ينافسه سلطانه وان الدولة لا يقوم فيها سلطانان . ولا شك أن قتله لأبى مسلم رمز على دهائه الضخم البالغ، فقد كان يعرف مقامه بين جنوده ، وكان اسمه ألمع من اسم المنصور ، وهو الذى وطد لهم الدولة وقام بالانقلاب الذى أودى بالدولة الأموية •

وقد خشيه أبو العباس فى خلال فترة حكمة القصير • فلما ولى الحكم أبو جعفر المنصور قطع فى الأمر وتحرر منه • وذلك بعد أن قذف به فى نحور العدو حتى يخلص منه أو من عدوه الآخر فلما خلصه من أعدائه قضى عليه والقى برأسه مع الذهب لجنوده •

ومن يطلب لقــاءك أو يرده

ففى الحـــرمين أو اقصى الثغـــور

هارون الرشيد

عندما أوقع الرشيد بالبرامكة ، وقتل جعفرا وسجن أباه وأخوته وصادر أموالهم حاولت فاطمة زوجة يحيى، وهى التى أرضعته وربته أن تلقاه ، فأبى الرشيد مقابلتها معانه كان قد قطع على نفسه وعدا الا يحجبها قط وما استشفعته فى أحد الا شفعها ، فلما طال بها الالتماس • خرجت كاشفة وجهها ، واضعة لثامها ، محتفية فى مشيتها حتى صارت بباب قصر الرشيد ، فدخل عبد الملك بن الفضل الحاجب • فقال : ظئر أمير المؤمنين بالباب فى حالة تقلب شماتة الحاسد الى شفقة أم الواحد •

فقال الرشيد : ويحك ياعبد الله : أو ساعية ؟ قال نعم حافية •

قال : ادخلها ياعبد الملك فرب كبد غذتها ، وكربة فرجتها ، وعورة سترتها •

فدخلت فلما نظر اليها الرشيد داخلة محتفية قام محتفيا حتى تلقاها بين عمد المجلس وأكب على تقبيل رأسها • ومواضع ثدييها • ثم أجلسها معه فقالت : يا أمير المؤمنين •• أيعدو علينا الزمان • ويجفونا خوفا لك الأعوان . ويحردك بنا البهتان ، وقد ربيتك فى حجرى وأخذت برضاعك الامان من عدوى ودهرى ؟

فقال لها : وما ذلك يا أم الرشيد ؟

قالت : ظئرك يحيى وأبوك بعد أبيك • ولا أصفه بأكثر مما عرفه به أمير المؤمنين فى نصيحته ، واشفاقه عليه وتعرضه للحتف فى شأن موسى أخيه •

فقال لها : يا أم الرشيد .. أمر سبق .. وقضاء حم .. وغضب من الله نفذ .

قالت : ياأمير المؤمنين ، يمحو الله مايشاء ويثبت وعنده أم الكتاب •

قال : صدقت ، فهذا مالم يمحه الله •

تلك هى نهاية القصة فاذا أدرنا عقارب الساعة الى الوراء سبعة عشر عاما • كان ذلك ذات ليلة ، وهارون بن المهدى فى قصر بعيد عن بغداد مسيرة يوم ، خائفا يترقب ، عندما دخل عليه فى جوف الليل ، شيخ وقور ، كان قد ربى الأمير ، ذلك هو يحيى البرمكى الذى مالبث أن أيقظ هارون وقال له : قم ياأمير المؤمنين ••

فقال الرشيد : كم تروعني اعجابا منك بخلافتي · وأنت تعلم حالي عند هذا الرجل ـ يعني الهادي ـ فان بلغه هذا فما تكون حالي ؟

قال له يحيى : هذا خاتم الملك ·

هنالك علم الرشيد أن أمور الملك قد ألقيت اليه · ولم يلبث أن قال ليحيى بن برمك : أشر علي ·· ثم لبس ثيابه وصلي وترك «عياباذ» وولى وجهه شطر بغداد وقلد الرشيد يحيى بن خالد البرمكي الوزارة · وقال له: قد قلدتك أمر الرعية وأخرجته من عنقي اليك فاحكم في ذلك بما ترى من الصواب ، واستعمل من رأيت ، واعزل من رأيت ، وامضى الأمور على ماترى ·

ودفع اليه خاتمه ·

* * *

ومضت الأيام ·· وتوطدت أواصر الحب بينه وبين جعفر ، حتى بلغ ذلك مبلغه من الخيال فقيل انهما كانا يدخلان جلبابا واحدا ، وإن جعفر كان يقضي في أدق الأمور دون أن يرجع الى الرشيد ·

ونظر الرشيد ذات يوم من نافذة قصره على نهر دجلة فرأى قصر البرامكة على الجانب الآخر ، والزحام حوله شديد والخيول تصهل والارض تعج بالناس وليس أمام قصره شيء هنالك تنبه الرشيد الى أمر سلطانه الذي أوشك على الضياع ·· ثم توالت الارهاصات والأحداث · كان يطلب المال فلا يصل اليه ·· وظفر الرشيد باعتقال يحيى بن عبد الله الزعيم العلوى على أثر انهيار ثورته في بلاد الديلم وعهد به الى جعفر البرمكي ليسهر على اعتقاله فأطلق جعفر سراحه خفية ·

وقال ابن خلدون : «انما نكب البرامكة ماكان من استبدادهم بالدولة واحتجابهم أموال الجباية حتى كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل اليه فغلبوه على أمره وشاركوه في سلطانه ولم يكن له معهم تصرف في أمور ملكه فعظمت آثارهم ، وبعد صيتهم وعمروا مراتب الدولة وخططوها بالرؤساء من ولدهم ، فأورث ذلك عند مخدومهم نواشيء الغيرة والاستنكاف من الحجر والأنفة وكامن الحقود التي بعثتها منهم صغائر الدالة !!! وانتهى بها الاصرار على شأنهم الى كبائر المخالفات كقصتهم في يحيى بن عبد الله ···

وبلغت خشية الرشيد غايتها عندما علم أن جعفر يقول في مجالسه : ليست البطولة هي بطولة أبي مسلم الذي نقل الدولة بعد أن قتل الألوف المؤلفة ، ولكن البطولة هي نقل الدولة من غير اراقة قطرة دم ·

وأحس الرشيد أن البرامكة يريدون نقل الملك الى العلويين ·

وكان الصراع بين وزير الرشيد : الفضل بن الربيع وزوجه السيدة زبيدة ، وهما العربيان وبين البرامكة الفارسيين . وزاد هذا الخلاف حدة وجود ابني الرشيد : الأمين بن زبيدة والمأمون بن مراجل الفارسية ·

ولم يلبث الرشيد أن صمم على الايقاع بالبرامكة عام ١٨٧ . وقد أنفذ أمره فى ليلة واحدة بقتل جعفر بن يحيى واعتقال سائر البرامكة واستصفاء أموالهم .

وقد ظلت جثة جعفر منصوبة على جسور بغداد حتى مر بها الرشيد وهو متوجه الى خراسان عام ١٩٢ فأمر بانزالها واحراقها .

* *

وذلك أبلغ حدث فى حياة الرشيد الذى ظل مرتبطا بتاريخه وحياته الى أن قضى ولا شك أن « هارون الرشيد » يقف على رأس القمة التى بلغتها الدولة العباسية ، بل التى بلغها تاريخ الامبراطوريه الاسلامية كلها .

هذا المجد الذى لم يلبث طويلا بعد ذلك . والذى كان خلال عهد المأمون امتدادا للدفعة القوية التى بلغها الملك فى عهد الرشيد . وحسبك بالخليفة الذى روى عنه أنه قال للسحابة المارة : «امطرى حيث شئت فسيأتينى خراجك» .

وقد اختلف المؤرخون حول الرشيد اختلافا شديدا .. فذهب بعضهم الى أنه كان يصلى مائة ركعة كل يوم . وانه كان يتصدق بمائة ألف درهم وانه كان يحج عاما ويغزو عاما ، وذهب البعض الآخر الى القول بأن قصره كان صورة صحيحة لقصص من ألف ليلة ، وانه كان مرحا طروبا يقيم مجالس الغناء والأنس تنتظمها أكواب الراح ، وانه كان يقضى أغلب وقته بين الغناء والموسيقى والمغنيات والقيان ..

على أنه ليس من الغريب أن يجمع الرشيد بين الصورتين المتباعدتين اللتين تجمعهما دلالة الشخص القوى الحيوية ، الدافق الشباب ، البالغ الفتوة . وليس على الرشيد من بأس على ضوء طبعه هذا من أن يعيش هاتين الحياتين معا ، ويمزجهما على نحو من الاعتدال فهما قريبان جدا ، يلتقيان دائما اذا بعدت عنهما مبالغات القصاص وأحاجى الرواة ، وليس على الرشيد من بأس أن يعقد مجالسه فيستمع الى السمر والغناء والموسيقى ، ولا يمنعه ذلك من أن يصلى لله مائة ركعة ، وان يمضى الى الحج عاما والغزو عاما .. وكان يتواضع للعلماء . قال أبو معاوية الضرير اكلت مع الرشيد فصب على يدى الماء رجل ، فقال لى أيا أبا معاوية أتدرى من صب الماء على يدك ؟ فقلت لا ياأمير المؤمنين . قال أنا فقلت ياأمير المؤمنين ، أنت تفعل هذا اجلالا للعلم ؟ قال نعم .

وكل وقائع حياة الرشيد التى بين أيدينا . تدل على أنه أمضى حياة جادة كل الجد فقد حفلت حياته القصيرة بالغزو والجهاد فما كان ينتهى من غزوة حتى يقترح أخرى .. كذلك كان منذ شبابه الغض الى اليوم الاخير من حياته .

وأبرز مظاهر حياته انه رجل حرب وقتال .. اشربت روحه الجهاد. وقيادة الجيوش ونضال العدو . وكانت أغلب غزواته فى أرض الدولة البيزنطية . فلما ولى الملك نظم الشواتى والصوائف . وحرض على ارسالها ثم خرج بنفسه الى قتال الروم بعد أن نقضوا المعاهدة ومنعوا الجزية .

وكان حفيا بمواجهة الخصوم والأعداء لايهدأ ولا يستريح الا لنصر يكسبه من وراء نصر • فلا يلبث أن ينتهى من صراع الأعداء على حدود الدولة البيزنطية حتى يعاود الصراع مع العلويين الذين يظهرون هنا أو هناك محاولين الفتنة أو منازعين على الملك •

هو فى هذا كله صلب العزيمة ، قوى العود ، غاية فى البسالة والحيوية ، وهى صفات لاتضع صاحبها فى صف المنقطعين للهو أو العاكفين على الهوى •

وفى هذا يقول الشاعر :

ومن يطلب لقاءك أو يرده ففى الحرمين أو أقصى الثغور

***

وقد بدت هذه النفسية المصارعة الجارفة ، فى أوضح صورها وأقواها حين استبان له غدر البرامكة ، فصرعهم فى ليلة واحدة ، وفق أسلوب غاية فى الجرأة والحسم والبتر ، ولم يقبل فيهم شفاعة أى شفاعة .. حتى شفاعة ظئره التى أرضعته •• وربته •• وكانت عنده شافعة لاترد لها شفاعة •

وليس شك أن هذا التصرف الجرىء الحاسم مع البرامكة ، بعد أن أطلق أيديهم فى أمور الملك سبعة عشر عاما ، حتى بلغوا مكانا عاليا •• واستطار اسمهم ، وعلا صيتهم وفى الوقت الذى كان يعلم أنهم هم الذين أبلغوه الملك ، ومكنوا له فيه لدليل أكيد على قوة نفسية الرشيد • قوة تزرى بما عرف عن جده المنصور • وان ظلت نفس الرشيد تحتفظ بطابعها الخالص من السماحة والرقة واللين والمرح والاشراق •

وآية هذا الذى نذهب الى القول به فى نفسية الرشيد أنه فى رحلته الأخيرة الى خراسان حمل اليه أحد الخوارج • وكان فى أشد حالات المرض بل وفى سكرات الموت ومع ذلك أمر بقتله أمامه • وظل يملأ نظره من دمه المهدور وهو مسجى على وشك أن يبلغ غاية الأجل من علته •

***

وكان الرشيد خلال حياته التى لم تتجاوز الخامسة والأربعين ، حامل لواء الحضارة الاسلامية فى الشرق ـ بالاضافة الى منصبه كخليفة للامبراطورية ـ فقد احتضن الثقافة والفن ، وشجع رجال الشعر والموسيقى والغناء • وأفسح لهم ومكنهم من الابتكار والتجديد والابداع ، وعنى بالتأليف وأعان الفقهاء • وفتح لهم أبواب البحث والقضاء • وعقد لهم مجالس البحث والمساجلة والمناقشة فى مختلف المسائل •

وقد اتصل بشارلمان حاكم فرنسا وجرمانيا وايطاليا ، وأرسل اليه وفدا وأهدى اليه مفاتيح بيت المقدس علامة على الود بين الشرق والغرب وبين الاسلام والمسيحية •

ثلاث نجوم كانت تدور فى فلك الرشيد •

أمه الخيزران ، وزوجه زبيدة ، ووزيره جعفر ·

أما الخيزران فقد كرهت الهادى لانه كان يصرفها عما تبغى من مظاهر السلطة والنفوذ ، أما الرشيد فقد أباح لها ماتشاء منه ، واليها يرجع بعض الفضل فى أن يقفز الى الخلافة قبل أن يجىء دوره فى ترتيب الولاية وولاية العهد ·

وأما زبيدة فزوجه الأولى التى كان يؤثرها على كل زوجاته وسراريه وجواريه وهى أم الأمين · وكانت ذات رأى وتدبير ، فكان الرشيد لا يرى بدا من أن يأخذ بمشورتها وأن يطلق يدها فى انشاء القصور · وتعمير المساجد وحفر العيون المعروفة باسمها ·

أما جعفر فكان محببا الى نفسه غاية الحب ، حتى لقد روى بعض المؤرخين انهما كانا يدخلان فى ثوب واحد ، وهو ان قيل على أنه ضرب من المجاز فانه يصور مدى ماكان بينهما من الحب الصادق والود الأكيد ·

وروى أن جعفرا تصرف باسم الرشيد فى أمور غاية فى الدقة فأقره الرشيد وقبل منه ورضى عنه · ولم يمنع هذا جعفرا من أن يقع به ما وقع عندما قضى فيه الرشيد بأمره ·

وتلك شميلة من شمائل الرجل الفذ · تثبت فى وضوح قوة عارضته ولو كان كما روى عنه من الاسراف فى الترف لما استطاع أن يحسم أمره بالقوة والبراعة والحكمة فى الوقت المناسب ·

فاذا أخذ عليه بعد ذلك أنه بايع للأمين بولاية العهد . والمأمون بخراسان وللقاسم بولاية العهد بعد المأمون فى عقد واحد · وكان هذا الذى فعل الرشيد بعيد الأثر من بعده · وهذا خطأ من أخطاء العاطفة المتحمسة والعقل الراغب فى حسم الامور الذى يظن أنها تنقاد من بعده وفق سلطانه وارادته · وهو أشبه بما قيل عن رضائه عن صداقة جعفر والعباسة . وجمعهما فى حضرته وانفاذ أمره بزواجهما دون أن يلتقيا كما يلتقى الأزواج ·

فاذا صح ماذهبنا اليه من أمر الرشيد الذى عاش حياته مقسما اياها بين الحرب والحج ، ومغالبة الاعداء والخصوم من الروم والعلويين والبرامكة فلا يمنع هذا الطبع المشبوب بالحماسة والقوة والحيوية من أن يرد موارد المتاع بالسمو ومجالس الطرب · فذلك يتمشى مع طابعه ولا يتعارض معه بحال من الأحوال ·

وقد أداه طبعه السياسى الواضح هذا الى أن يرسم الخطط للأمور التى يمكن أن تقع بعد عهد طويل ، ولا بأس عليه من أن يخطىء خطأ المجتهدين لاخطأ الجامدين فى أن ينظم ملكه من بعده على صورة مبايعة طويلة المدى لأولاده أو أن يقتل الخارجى وهو على وشك الموت ·

***

ولا شك أن تصرفه فى كسب صداقة شارلمان ، واهدائه اياه مفاتيح

بيت المقدس هو من وعيه السياسى النابه الذى أراد به أن يحول بين عاديه الصراع بين الشرق والغرب وهو ما امتحنت به المملكة الاسلامية من بعد .

وجملة القول : ان الرشيد كان من أبرع ساسة الشرق ، وخلفاء الاسلام • وانه لم يكن بالمترف اللين الناعم كما صوره صاحب الأغانى • أو كتاب ألف ليلة • ولكنه كان قاسيا جبارا • فيه روح المجاهد المحارب • وعاطفة الشباب الفوار الذى لايرضى الهزيمة والذى يتعقب خصومه ويفتك بهم • والذى يحب مجالس العلم والفن ويلقاها مبتسما طلقا ، وان طوى النفس على عزيمة ماضية تبرز فى قوة حين يتصل الأمر بشخصه أو سلطانه •

ومن قول القاضى الفاضل : ماأعلم أن لملك رحلة فى طلب العلم الا للرشيد فانه رحل لسماع الموطأ من مالك فى المدينة وكان من حوله دائما أبرز رجال العلم فى مقدمتهم الأخمصى وأبو عبيدة والكسائى والواقدى وأبو يوسف ومروان بن أبى حفصه وأبو العتاهية ، مات عام ١٩٣ •

* **أيام السرور في حياتي أربعة عشر يوما ·**

عبد الرحمن الناصر

شخصية باهرة بجوانبها المتعددة ، وطبيعتها الواسعة الأفق ، ونفسيتها العميقة الفور . وعرف بالوسامة والطلاقة وحسن السمت وكرم الخلق وقوة الادراك .

وصف بأنه أبيض أشهل ، حسن الوجه ، عظيم الجسم · أحبه الناس · وعشقته الجماهير لهيبته ولسماحة نفسه ، والخلال فيه أبرزها الوفاء والرعاية والبطولة ·

ولى الحكم في سن الحادية والعشرين · وأعاد مجد الأندلس بعد أن أوشك على الانتقاض · وكان لشجاعته وشبابه وفروسيته أبعد الأثر في حب الجيش له وتعلقه به فقد كان مقداما شجاعا مفعم النفس بالحماسة لاستعادة مجد العرب وعظمة المسلمين ، ينطلق في مقدمة جنده ، يلهب أعصابهم ويملأ أرواحهم بالحماسه والايمان فينقضون انقضاض الشهب ويندفعون اندفاع القضاء الغلاب ·

وقد دانت له مدن الأندلس واحدة بعد أخرى ، وفتحت له أبوابها صاغرة وأذعنت له قرطبة واشبيلية واطاعته البربر ، وأعلن موقفه في صراحة : انه لايقبل الشقاق وتمكن بقوة عارضته أن يدعو رؤساء القبائل الى الوحدة ، وان يمسح بالحزم والحكمة على القلوب ، فلم يسمح بأى عصيان ورفض أن ينزل عن أى جزء من مملكته ·

وهو ـ في خلال معاركه ـ رحيم بالناس رفيق ، لا يدع جنده المأثمة من مآثم الفتح وقد مكنت له هذه الخلال فاستطاع أن ينفذ الى مرسيه وأن يهاجم طليطلة ، وأتاحت له قوة شخصيته أن يعيد ماضيعه اسلافه في خلال ثمانية عشر عاما قبل ولايته ·

وقد توالت حروبه وفتوحه وانتفاضات الأعداء له · فكان يواصل الغزو ولا يدع لهم الفرصة ليحرزوا أى غنم أو نصر ويعاود بعث حملاته للاستيلاء على الحصون والمعاقل ومطاردة الثوار دون أن يلجأ الى القسوة ، ومع اتباع أسلوب الرفق والتسامح حتى لقد قبل من العصاة طاعتهم ·· وأبدى نحو النصارى الذين أذعنوا للطاعة كرما وتسامحا مما سجله المؤرخون الأوربيون وفي مقدمتهم دوزى ·

وعندما ظهرت المجاعة عام ٩١٥ هـ بالأندلس قاومها ببراعة وبذل المعونة والغوث لشعبه ووزع المؤن والصدقات الوفيرة · ولطف المنحة ، وظل الى ذلك يقظا قويا يرقب حركات الثوار في حذر وأهبة · ثم سير قواته مرة أخرى لقمع الثورة حتى مات زعيم الثورة عمر بن حفصون في غرب الأندلس ·

وقد أمضى أربعة أعوام كاملة يغزوهم حتى انتهى الأمر بسحقهم والاستيلاء على قواعدهم نهائيا عام ٩٢٨ هـ ولم يدع الثوار فى الجهات الاخرى فسار الى المناطق النصرانية فأدال منها وعاد مثقلا بالغنائم والسبى واخضع الطوائف واقتحم حدود ليون وزحف على « سموره » وكانت غاية فى المناعة تحيط بها سبعة أسوار شاهقة وكان بين الأسوار خنادق متسعة تفيض بالماء . .

* . . *

وعندما استولى على حصن «بيشتر» وقف على مشارف الحصن · ونظر من بعده الشاهق الى القمم الشديدة الانحدار التى تحيط به · وامتلأت روحه عاطفة واهتزت نفسه فلم يلبث أن سجد لله شكرا ·

وعندما ضعف مركز الخلفاء في المشرق دعا لنفسه بالخلافة فأمضى ثلاثين عاما يحمل لواء الخلافة · وقد استتب له الأمر ، واستقرت الأحوال ودخل الأندلس عهد من عهود السلام والحضارة ، مكن له أن يؤدى رسالته كمنار للحضارة في عصر عمت فيه الظلمات أوربا · وكان لحكمة عبد الرحمن وعظمة شخصيته أبعد الأثر فى هذا الدور الخطير حين استطاع أن يدعم الصلات بين العرب والبربر والاسبان والمسلمين ومدعى الاسلام ·

وقد بلغ من عزة الملك ورفعة السلطان بالأندلس ان كانت ملوك الفرنجة والروم تتقرب اليه تطلب مهادنته وتهدى اليه أنفس الذخائر ومن جمعهم قسطنطين بن ليون صاحب القسطنطينية فقد رغب فى موادعته وبعث اليه عام ٣٣٨ وفدا من قبله بهدية له ، فتأهب الناصر لورودهم ، واحتفل بقدومهم احتفالا رائعا أحب أن يقوم فيه الخطباء والشعراء بين يديه لتذكر جلالة ملكه وعظيم سلطانه وتصف ما تهيأ من توطيد الخلافة فى دولته ·

وكان الناصر قوى الشخصية جمع كل سلطة فى الدولة واستأثر بمقاليد الحكم فى يده وقاوم كل من حدثته نفسه أن ينتقض عليه أو يحاول الحد من سلطانه. وقد قتل ولده عندما علم أنه يتآمر عليه . وأعدم كل من اتجهت اليهم شبهة الاشتراك معه ، وكان أبلغ حرصه على اصلاح الجيش وحشد الجند من سائر انحاء اسبانيا والمغرب مستكثرا من الأسلحة والذخائر ·

وقد أعجب بشخصية عبد الرحمن كل من عرفه واتصل به · وكان عبد الرحمن الى هذا المظهر الجاد والفروسية فى الحرب والحكمة فى الادارة والبراعة فى الحكم والمرونة فى السياسة انسانا يحب له قلب يخفق وعاطفة رقيقة تضطرم بالحنان والأشواق ·

وقصة حبه لزوجته « الزهراء » رمز على هذه النفس التى أحبت فاستجابت لمن تحب ، فقد طلبت اليه الزهراء أن يبنى مدينة باسمها فبنى مدينة الزهراء · فكان لها خمسة عشر ألف باب ملبس بالحديد والنحاس المموه · وكان سقف بهو الخليفة وحيطانه من الذهب وبنافورته تمثال عجيب أهداه اليه ملك الروم وفى وسط البهو حوض ملىء بالزئبق الرجراج · والى كل جانب منه ثمانية أبواب من العاج والأبنوس قد رصعت بالجواهر . فاذا دخلت أشعة الشمس من هذه الأبواب ولاقت اهتزاز

الزئبق ملأت البهو ببريق يشبه لمعان البروق حتى لقد يحجب الحاضرون عيونهم بأيديهم من شدته .

وقد حشد الناصر لمدينة الزهراء أمهر الصناع وجلب لها الرخام الأبيض والأخضر والوردى من قرطاجنة وتونس والشام وقسطنطينية وكان يشتغل فى بنائها خمسة آلاف رجل وتكلفت ثلثمائة الف دينار كل عام فى مدى خمسة وعشرين عاما . وقد أنشأ مسجدا عظيما تم بناؤه فى ثمانية وأربعين يوما • عمل فيه كل يوم ألف من العمال والصناع •

وقد نمت قرطبة فى أيامه ، حتى بلغ سكانها أكثر من خمسمائة ألف • ومساجدها ثلاثة آلاف مسجد وحماماتها ثلثمائة وضواحيها ثمانية وعشرون •

وزاد الخراج زيادة عظيمة باستتباب السكينة والأمن . وبلغت الجباية فى عهده خمسة آلاف ألف واربعمائة ألف وثمانية ألف دينار • وخلف عند وفاته فى بيوت المال ما تبلغ قيمته خمسة آلاف مليون دينار • وقد حال ثلث الجبايه للجيش ، وثلثه للبناء والمنشآت العامة وثلثا للطوارىء •

وقال البغدادى انه كان أغنى ملوك عصره •

وقد ترك عبد الرحمن من البنين أحد عشر ولدا • وقد سأل عن البناء الضخم فقال : انه أراد به مواجهة الفرنجة بمظاهر اشد قوة ليكون ملك المسلمين اشد هيبة ومكانة ولكن الناصر لم يكن الى ذلك سعيدا كل السعادة بالرغم من العمر المديد والنصر المؤزر والحب الموفق والسلام الذى عاشت فيه الأندلس خلال حكمه .

يقول ابن خلدون « وجد بخط الناصر رحمه الله ان أيام السرور التى صفت له دون تكدير كانت يوم كذا من شهر كذا من سنة كذا • ويوم كذا من شهر كذا من سنة كذا . وعدت تلك الأيام فكانت أربعة عشر يوما •

فاعجب أيها العاقل لهذه الدنيا وعدم صفائها وتحايها بكمال الأحوال لأوليائها هذا الخليفة الناصر حلف السعود ، المضرب به المثل فى الارتقاء فى الدنيا والصعود ملكها خمسين سنة وستة أو سبعة أشهر وثلاثة أيام • ولم تصف له الا أربعة عشر يوما فسبحان ذى العزة القائمة والمملكة الدائمة لا اله الا هو •• »

وقد برع الناصر فى النحو والشعر والتاريخ • ومهر فى فنون الفروسية شجاعة واقداما فى المعارك التى اشترك بها وكان عالما أديبا يهوى الشعر ويقرب الأدباء وكان له شاعره الفقيه ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد ••

يقول دوزى ان عبقريته الشاملة التى تدعو الى الاعجاب لم يصرفها نحو الصغائر بل كما تدعو اليه أسمى الأمور .

وقد مات سنة ٩٦١ م ــ ٣٥٠ هـ عن واحد وسبعين عاما حكم منها اكثر من خمسين عاما وهو أطول حكم لخليفة مسلم .

* ان حارس الدنيا لا ينام اذا نامت الرعية

الحاجب المنصور

يبهر « محمد بن عبد الله بن أبى عامر المعافرى » من يطالع تاريخه بتلك العصامية وذلك الصمود للأحداث والثبات وقوة العزيمة . فقد تطلع الى المجد . وهو شاب مغمور وظل يعمل بقوة ويزيح من طريقه العقبات والصخور حتى أصبح بعد كفاح طويل الحاكم الاول للاندلس كلها .

ولكن أسلوب الحاجب المنصور لم يكن أسلوبا مثاليـــا ولكنه كان أسلوب السياسيين بما فيه من مكايد فعلية ومؤامرات ودسائس ورغبة فى الوصول الى الغاية أيا كانت الوســيلة وقد عرف بالقسوة والصرامة فى تحطيم خصومه وتمزيق منافسيه .

كان فى أول شبابه طالبا مغمورا بجامعة قرطبة . وقد نشأ فى بيت فقه وعلم وكان حسن الأسلوب جيد الكتابة . ويقول المقرى فى نفح الطيب: « قالوا انه كان يجلس فى دكان عند باب القصر ليكتب للخدم والمترافعين للسلطان الى أن طلبت « صبح » من يكتب عنها فعرفها به من كان يأنس الجلوس اليه من فتيـــان العصر فاستحسنت كتابته وعينته أمينا لبعض شئونها » .

وكان يكتب الرسائل لخـــــدم القصر وقد وثق بذلك علاقته بكبير الحجاب الذى رأى فيه براعة وتفننا .

وقد أعجبت به صبح أم المؤيد وزوج الخليفة هشـام التى أحبته ، وكان حبهما بعيد الاثر فى التطور الخطير الذى ظل المنصــــور يقطع به المراحل حتى بلغ أكبر منصب فى الدولة .

وقد وصل بأنه كان يقضى ليله مكبا على الفكر والبحث والتأمل . وبين يديه دواته وقلمه وورقه . يكتب ما يعن له من خواطر وآراء . ويظل هكذا حتى قبيل الفجر فيهجع ساعة ثم يقوم للصلاة .

قال له شعلة : لقد افرط مولانا فى السهر وبدنه يحتاج الى أكثر من هذا النوم وهو يعلم ان السهر يحرك عليه العصب عنده . فقـال له ان حارس الدنيا لا ينام اذا نامت الرعية . وانه لو استوفى نومه لما كان فى دور هذا البلد عين نائمة .

كان شديد الثقة بنفسه . عميق الفهم لغرضه . فيه عزيمة واعتداد . وسيم المحيا طموحا مضطرم العزيمة . عين مشرفا لادارة أملاك عبد الرحمن

ابن الحكم - عين براتب قدره خمسة عشر دينارا فى الشهر . ثم أضيف اليه النظر على الخزانة العامة ثم عين للنـــظر فى خطة المواريث فقاضيا لكورة اشبيليه .

وقد افتتن فى خدمة صبح وارضائها . وقدم لها فنـــونا من الهدايا وألوانا من التحف منها قصر صغير من الفضة بديع الصـــنع والزخرف . حتى ملك قلبها وأسر لبها . فدفعته الى الأمام وحطمت الحوائل من طريقه وأعانته على خصومه .

وقد استطاع بذكائه وكفايته وعطف صبح أن ينال ثقة الحكم فلما مات كان هو الذى يقف وراء صبح . وقـــد أتيحت له الفرصة ليجمع السلطات كلها فى يده . فقد كان عبد الرحمن بن الحكم حدثا فى الثـانية عشرة ، وكان ابن‌عامر هو الذى نظم البيعة له فى حياة والده بعد أن خاف أن يتولى الملك المغيرة أخو الحكم . فلما مات الحكم وخيف انقضـــاض الصقالبة الذين كانوا يؤيدون المغيرة أرسل ابن أبى عامر الى الحكم من قتله . وقد كانت « صبح » ترى فيه حامى عرض ابنها . فرفعته الى مرتبة الوزارة وبدا التجافى بينه وبين الحاجب جعفر ثم ازداد اضطراما وزاد الصراع وانتهى بأن حمل على الصقالبة ثم اعتقل جعفرا حتى مات.

وبدأ ابن أبى عامر يحجب الأمير هشاما الذى كان ميالا الى اللهو عن الشعب فلم يعد يره أحد . وربما أركبه وجعل عليه برنســا فلا يعرف . واذا سافر وكل من يفعل به ذلك .

وكان ذلك جريا منه على خطته فى جمع كل سلطات الخلافه فى يده وسحق كل عقبة .

يقول ابن خلدون « ثم تجرد ابن ابى عامر لرؤساء الدولة من عانده وزاحمه فمـال عليهم وحطهم عن مراتبهم . وقتـل بعضهم ببعض . كل ذلك عن أمر هشام وخطه وتوقيعه حتى‌استأصل شأفتهم ومزق جموعهم» .

وقد بلغ به الأمر زيادة فى التحوط ، ومضيا فى تنفيـذ خطته أن أنشأ مدينـــه جديدة فى ناحية قرطبة على ضفة الوادى الكبير وسـماها « الزاهرة » ونقل اليها خزائن الأموال والأسلحة . ونفذ الأوامر باسمه ونقشه على السكة .

وغزا المنصور خمسين غزوة عاد منها جميعا منتصرا . فقد كان فارسا وكان خشنا لم تغيره‌الحضارة ولم يذهب الترف‌قوة عزيمته.وقد أغار عدة اغارات موفقة‌جعلته موضع اعجاب‌الناس وتقديرهم . وكان‌اوقعها غزوته لنصارى الشمال . وقيل من حزمه انه كان اذا قدم من غزوة لايحل من نفسه حتى يدعو صاحب الخيـل فيعلم ماامات منهـا وصاحب الابنية ليعلم ما وهى من أسواره وقصوره ودوره .

وقد تعلق به الجيش بعد أن أضاف اليه فصـائل جديدة من افريقية ونصارى الشمال واتيح له الاستيلاء على ليون وبرشلونه .

وقصة المنصور فى تحطيم خصـومه والواقفين على طريقـه الى الملك

تعطى صورة تلميذ من تلاميذ مكيافيلى · وقصته فى عزل ابن المصحفى وايقاعه بين المصحفى ورئيس الشرطة ، وغالب رئيس الوزراء ، واتهامه الاول بالخيانة والقائه فى السجن ليعطى صورة قسوته وجبروته فى فرض سلطانه وتعزيز مكانه .

ولعل أبرز صـــورة لعزيمته الجبارة هو أنه بينما كان يتحدث مع الناس فى بعض شأنه اذا برائحة لحم يشوى · ثم ظهر أنه قد أحضر كواء لكى ســـاقه بينما كان يناقش من حضروا مجلسه فى هدوء وسكينة · والحادثة الاخـرى أنه قتل ولده صبرا بالسـيف لانه خالفـه فى أمر من الامور ·

وقد وصف بأن جسمه خاضع لعقله . وان حب صبح لم يفتنه لدرجة ان يصرفه عن المجد . وقيل ان لذاته كانت خاضعة لطموحه . حتى أنه كان يحتفظ بهدوئه فى أشد أوقات المحن والشدائد ·

وقد عاش حياته يعمل ويرسم خطط الحرب،ويعد القوات ليدفع بها فى نحر العدو ولم يعرف عنه لهو ولا خمر ولا مأثمه · كأنما قد فطم نفسه عن الشـــهوات . وجـردها من الاهواء . وظل يعمل حتى قضى وهو فى خضم الحوادث · واستشهد فى ميدان المعركة ·

ولا شك أنه أذل خصوم العرب وأحنى رءوس أعداء الاسلام . وفرق وحدتهم حتى تملقه زعماؤهم والتمسوا رضاه .

وقد كان هو قمة المجد فى الأندلس فلما انتهى انطوت صفحة الفرد، وبدأت عهود الضعف والانحدار والتفكك . ولم يقم من يخلفه على هذا .

وقد أمضى عشرين عاما يقبض على الاندلس ، ولم تبلغ ما بلغت فى عهده ·

وقد اختلفت صبح معه فى آخر أيامهـا حينما اسـتفاقت من نشوة حبها . واحست بأن الرجل قد سلب ابنها كل سلطة . فمضت تؤلب عليه · ولكن المنصور كان قويا فى هذه الجولة أيضا واستطاع أن يقضى على مؤامراتها حين اتفقت مع زيرى بن عطيه حاكم المغرب الأقصى . لقد كان أكبر من الحوادث . ولم يكن هناك اذ ذاك من يستطيع أن يقف فى وجهه.

ولا غرو فالمنصور هو ثالث ثلاثة فى الاندلس : الداخـل والناصر والمنصور ·

✻ « ان حبى للجهاد ينسينى طيب دمشق ورقة هوائها » •

نور الدين الشهيد

يقول ابن الأثير : قد طالعت تواريخ الملوك المتقدمين قبل الاسلام . والى يومنا هذا . فلم أر بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبدالعزيز أحسن سيرة من الملك العادل نور الدين ولا أكثر تحريا للعدل والانصاف منه ، فقصر ليله ونهاره على عدل ينشره وجهاد يتجهز له . ومظلمة يزيلها . وعبادة يقوم بها • واحسان يوليه • وانعام يسديه •

ويقول العماد الكاتب : كان فى الحرب ثابت القدم . حسن المرمى صلب الضرب يتقدم اصحابه . ويتعرض للشهادة . وكان يسأل الله تعالى أن يحشره فى بطون السباع وحواصل الطير .

يقول عنه « ابن الاثير » : كان أصبر الناس فى الحرب وأحسنهم مكيدة ، لم أر على ظهر فرس قط أشجع ولا اثبت منه •

وروى العماد : كان نور الدين بدمشق يلعب بالكرة ليروض خيله ويمرنها . فرأى رجلا يحدث آخر . ويشير بيده الى نور الدين فأرسل اليه يسأله عن حاله .

فقال : لى مع الملك العادل حكومة . وهذا غلام القاضى . فألقى نور الدين الجوكان من يده • وخرج من الميدان • وسار الى القاضى • وهو حينئذ « كمال الدين الشهرزورى » وأرسل الى القاضى يقول له : انى قد جئت محاكما فاسلك معى مثل ما تسلكه مع غيرى • فلما حضر ساوى بينه وبين خصمه وحاكمه . فلم يثبت عليه حق وثبت الملك لنور الدين . فقال نور الدين حينئذ للقاضى ولمن حضر : هل ثبت له عندى حق • قالوا لا : قال اشهدوا اننى قد وهبت له هذا الملك الذى حاكمنى عليه . وهو له دونى • وانى كنت أعلم أن لا حق له عندى وانما حضرت معه لئلا يظن أننى قد ظلمته فحيث ظهر أن الحق لى وهبته له •

✻✻✻

والحق أنه اذا ذكر الايمان المقرون بالجهاد والتصوف المرتبط بالدم فى سبيل الله فان أبرز اسم يمكن أن يحقق هذا المعنى هو : نور الدين الشهيد •

عزوف عن الدنيا . وحب لله . وصدق عزيمة فى سبيل تجميع الأمة العربية وسحق الصليبيين • حتى أنه قضى حياته كلها فى حروب دائمة• وبلغ به الورع أنه حرم على نفسه الابتسام والفرح . وقال انه يخشى أن

يحاسبه الله عليه . وفى أرض المسلمين جندى من جنود الفرنجه . فقد روى له حديث مسلسل بالتبسم وطلب منه أن يبتسم لتتم السلسلة على ما عرف من عادة أهل الحديث فغضب لذلك وقال : انى لاستحيى من الله أن يرانى مبتسما والمسلمون محاصرون من الفرنجة .

وعاش مرابطا للعدو. ومن ذلك قوله : ان حب الجهاد ينسينى طيب دمشق ورقة هوائها وجمال أزهارها . وكان من أصبر الناس على الحرب وأبلغهم مكيدة حتى وصف بأنه أبرع من ركب فرسا . وأثبت وأشجع . ولما فاتته الشهادة مرة ومرة ، أحس بالحزن وكان لا يلبث أن يردد : لقد عزمت على الشهادة غير مرة فلم أنل شرفها . ولو كان فى خير أو لى عند الله مكانة لرزقنيها .. وقد تحقق له ذلك من بعد ومات شهيدا .

وقيل أنه لم يكن أحد من القادة كنور الدين فى قيادة الجيوش . يتقدم أصحابه ويتعرض للموت . ويضرب فى صلابة وثبات قدم . وفى كل خطوة والمعركة على أشدها ، يسأل الله أن يحشره فى بطون السباع وحواصل الطير . واذا التقى الجمعان سجد لربه ومرغ وجهه وتضرع وقال : اللهم انصر دينك ولا تنصر محمودا ...

ولعل أبرز مواقع صراعه مع الصليبيين موقعه « آنب » التى كانت فى صفر عام ٥٤٤ اذ حشد فيها الصليبيون حشودا كبيرة. وحاربهم نور الدين فى ستة آلاف فارس فهزمهم وصرع ابراهيم البرنس (أبو بيمونت) الذى كان مشهورا بشدة البأس وقوة الحيل وبعد السطوة وبغضه الشديد للمسلمين . كما أسر « جوسلين » الذى كان من شياطين الصليبيين وأبطالهم وأكثرهم عداء للعرب .

وقد استطاع فتح دمشق والاستيلاء عليها كما استولى على حارم وبانياس بعد معارك هائلة أبلى فيها أحسن البلاء . كما سقطت فى يده حصون الفرنجة الشمالية واحدا بعد واحد وفتح مصر بعد حروب شداد . بعد أن هاجمت جيوش الصليبيين ثغورها وحاصرت القاهرة .

***

وقد أعاد نور الدين سيرة العمرين : عمر بن الخطاب ، وعمر بن عبدالعزيز . كان قواما ينزل المسجد بغلس . ولا يزال يركع ويسجد حتى يصلى الصبح . وكان يرفع يديه طويلا الى السماء ويتضرع ويبكى .

ولقد بلغ من ورعه أنه عاش على سهمه فى غنيمة الحرب ورفض كل مال أرسل اليه . ومن قوله : ان رقبتى رقيقة لا تطيق حمله والمخاصمة عليه بين يدى الله .

وعاش مدة حكمه يعقد مجالس الخلافات للنظر فى قضايا الرعية ومشاكلها حتى أحبه الناس وتعلقوا به حتى كانوا يضحون عنه بأرواحهم .. وكان الناس فى أشد القلق عندما أصابه المرض .

وامضى أيامه كلها غازيا وما من غزوة يدعو اليها الا ويجتمع له

الاحداث والمتطوعة والفقهاء والمتصوفة فقد كان يحب العلماء ويجمعهم اليه ويبحث معهم أمور الدين •

وكان نور الدين ورعا بسيط الملبس خشن المأكل • قد نفض يده من ترف الدنيا وزخرفها ونذر نفسه للجهاد فى سبيل الله . وقد عرف بكثرة الهبات والصدقات . وقد حملت اليه الهدايا الرائعة فلم يكن يلتفت اليها وانما وهبها لبعض من يزورونه من الفقراء .

وقد استجاب الله له فرزقه الشهادة • فمات فى ساحة الوغى وهو يحارب الصليبيين وينشر روح الكفاح والجهاد فى سبيل الذود عن بلاد الاسلام .

وكان أول من دعا الى الوحدة العربية للوقوف فى وجه الفرنجة مؤمنا بفكرته أكبر منه قائدا حربيا وسياسيا ولم يمت حتى خلف للعرب دولة موحدة قوية فى يد زعيم عبقرى هو صلاح الدين . فقد آمن بأن الوحدة هى السبيل الوحيد لتحطيم قوة الفرنجة •

عبد الرحمن منفرد بنفسه ، مؤيد برأيه ، مستصحب لعزمه

صقر قريش

عبد الرحمن الداخل

قال أبو جعفر المنصور يوما لجلسائه : أخبرونى عن « صقر قريش » من هو ، قالوا : أمير المؤمنين الذى راض الملك وسكن الزلازل وحسم الادواء · قال ما صنعتم شيئا · قالوا : فمعاوية · قال ولا هذا · قالوا : فعبد الملك بن مروان · قال لا · قالوا : فمن ؟ قال عبد الرحمن بن معاوية · الذى عبر البحر وقطع القفر . ودخل بلدا أعجميا مفردا ، فمصر الامصار . وجند الجند ودون الدواوين · وأقام ملكا بعد انقطاعه بحسن تدبيره · وشدة شكيمته · ان معاوية نهض بمركب حمله عليه عمر وعثمان وذللا صعبه · وعبد الملك ببيعة أبرم عقدها · وعبد الرحمن منفرد بنفسه مؤيد برأيه مستصحب لعزمه . اقتحم جزيرة شاسعة المحل . نائية المطمع . عصبية الجند حزب بين جندها بخصوصية وقمع بعضهم ببعض بقوة حيلته ، واستمال قلوب رعيتها بسياسته ، حتى انقاد له عصيهم ، وذل به أبيهم · فاستولى فيها على أريكته ملكا فى قضيته · قاهرا لأعدائه · حاميا الذماره · مانعا لحوذته · خالطا الرغبة اليه بالرهبة منه · ذلك لهو الفتى كل الفتى · لا يكذب مادحه » ·

ذلك هو عبد الرحمن بن معاوية الذى وصفه ابن حيان مؤرخ الاندلس فقال : كان عبد الرحمن راجح الحلم · راسخ العلم · ثاقب الفهم · كثير الحزم · نافذ العزم · بريئا من العجز · سريع النهضة فى طلب الخارجين عليه ، متصل الحركة · لا يخلد الى راحة ولا يسكن الى دعة · ولا يكل الأمور الى غيره . ثم لا ينفرد فى ابرامها برأيه شجاعا مقداما ، بعيد الغور . شديد الحذر ، قليل الطمأنينة · بليغا مفوها · شاعرا محسنا · سمحا مقداما · طلق اللسان ·

***

ويصور عبد الرحمن الداخل هجرته فيقول :

لما أعطينا الأمان ثم نكث بنا على نهر أبى فطرى · وأبيحت دماؤنا أتانا الخبر · وكنت منتبذا من الناس · فرجعت الى منزلى آيسا · ونظرت فيما يصلحنى وأهلى وخرجت خائفا حتى صرت على قرية من الفرات · ذات شجر وغياض . فبينما أنا ذات يوم بها وولدى سليمان يلعب بين يدى وهو يومئذ أربع سنين فخرج عنى ثم دخل الصبى من باب البيت باكيا فزعا . وجعلت أدفعه وهو يتعلق بى · فخرجت لانظر واذا بالخوف قد نزل

بالقرية ، واذا بالرايات السود منحطة عليها . واخ لى حديث السن يقول: النجاة النجاة فهذه رايات المسودة · فأخذت دنانير معى ونجوت وأخى · وأعلمت أخواتي بمتوجهى فأمرتهن أن يلحقنى مع مولاى بدرا · وأحاطت الخيل بالقرية فلم يجدوا لى أثرا · فأتيت رجلا من معارفى فأمرته · فاشترى لى دواب وما يصلحنى فدل على « عبد الله العامل » فأقبل فى خيل له يطلبنى · فخرجنا على أرجلنا هرابا والخيل تبصرنا فدخلنا فى بساتين على الفرات فسبقتنا الخيل على الفرات فسبحنا · أما أنا فنجوت والخيل يناودننا بالأمان ولا أرجع . أما أخى فانه عجز عن السباحة فى نصف الفرات فرجع اليهم بالأمان وأخذوه وقتلوه . وانا انظر اليه وهو ابن ثلاث عشرة سنة · فاحتملت فيه ثكلا ومضيت لوجهى فتواريت في غيضة حتى انقطع الطلب عنى وخرجت فقصدت المغرب حتى بلغت أفريقية » ·

ذلك هو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام · الذى فر من ظلم العباسيين بعد أن استولوا على الملك ومضوا يستأصلون شأفه الامويين · فظل يضرب فى القفاز حتى وصل الاندلس فأقام دولة ضخمة . وكان عمره تسعة عشر عاما عندما وصل الى شاطىء الفرات وعندما عبر البحر جاهدا حتى وصل الى الشاطىء الآخر فرارا من الرايات السود التى كانت تزمع اختطافه ·· فلما وصل الى اليابسة ظل يضرب فى الارض ، حتى وصل الى افريقيا · فعبر فلسطين ومصر حتى نزل بلاط عبد الرحمن بن مصعب الفهرى : أمير المغرب · ومنها عبر الى الاندلس فبث فيها دعوة الأمويين من جديد فاستجاب له الناس والتفوا حوله فكون ذلك الملك العريض · وكان المنصور الد أعدائه ولكنه أنصفه من نفسه حين وصفه بصقر قريش ·

ولا شك أن صقر قريش كان شخصية ممتازة حقا · هى التى مكنته من الوصول الى هذه الذروة · وأتاحت له القدرة على تحطيم كل عقبة ·

وصف بأنه كان مديد القامة نحيف القوام · أصهب خفيف العارضين ·· له خال فى وجهه · يؤثر لبس البياض ويعتم به · أعطى هيبة من وليه وعدوه · يحضر الجنائز ويصلى عليها · ويصلى بالناس الجمع والاعياد · ويخطب على المنابر ، ويعود المرضى ، ويكثر مباشرة الناس والمشى بينهم ·

وقد شبهه أبو حيان بالمنصور فى قوة شكيمته ومضاء عزمه وفى القسوة والصرامة والاجتراء على الكبائر ·

ويبدو بالاضافة الى هذا أنه كان قاسيا فى مقاومة الدسائس ، ومرد هذا الى نفسيته التى أكسبتها الاهوال الصرامة والقدرة على مواجهة الدماء المسفوكة دون وجل · فهو لم يكن يتورع عن الغدر والاغتيال للقضاء على خصومه ، بل لقد ذهب فى صرامته الى حد البطش بكثير من أصدقائه الذين آووه يوم مقدمه شريدا لا عصبية له ·

يقول دوزى مؤرخ الاندلس : « لقد دفع عبد الرحمن ثمن ظفره غاليا · ذلك الصارم المنتقم الذى لا تأخذه رأفة . ولم يبق ثمة زعيم عربى أو بربرى يجرؤ على مواجهته صراحة ، ولكن الجميع كانوا يلعنونه خفية . ولم يك ثمة رجل خير يرغب فى خدمته · كان هم عبد الرحمن الدائم أن

ينزل العرب والبربر الى الطاعة · وأن يرغمهم على التعود على النظام والسلام وقد لجأ فى تحقيق هذه الغاية الى جميع الوسائل التى لجأ اليهـا ملوك القرن الخامس عشر لسحق الاقطاع » ·

وقد حكم عبد الرحمن الاندلس ثلاثة وثلاثين عاما واخضع العرب والبربر واتخذ من قرطبة حاضرة لامارته ·

وكان شاعرا جيد النظم · ناثرا فصيح البيان · قوى الترسل · عالما بالشريعة لقد كانت الاندلس يوم دخلها عبد الرحمن متعبة مجهدة تتطلع الى زعامة قوية ، والى شخصية ممتازة توحد كلمتها وتلم شملها .

وكان عبد الرحمن هو البطل الذى جـدد الاندلس وبعث دولة الامويين بعد سقوطها فى الشرق .

توفى عام ١٧٢ هـ ·



* انت رجل منا آل البيت .

أبو مسلم الخراساني

عبد الرحمن أبو مسلم

شخصية جارفة . نادرة . قلما تمر فى التاريخ الا فى مراحل متباعدة . استطاع فى سنوات قليلة . وفى سن العشرين ان يحدث انقلابا ضخما كان بعيد الأثر فى التاريخ الاسلامى كله ، حين نقل الخلافة من بيت الى بيت . والحكم من دولة الى أخرى . فانهزمت العربية الخالصة . وانتصرت الفارسية الجديدة .

اكتشفه « ابراهيم الامام » عندما قدمه اليه « سليمان بن كثير » كبير الدعاة فى الدعوة السرية العباسية . وكان يعمل مع ابنى معقل العجلى . فلما رآه الامام أسماه عبد الرحمن بن مسلم ، وزوجه ، وقال له «لا يتم الامر الا بذلك كما وجدته فى الكتب» ونسبه الى بنى العباس.

وهو فارسى . ولد بأصبهان . ورحل فى السابعة من عمره الى الكوفة . ولم يلبث ابراهيم الامام ، أن سلمه مقاليد الدعوة فى خراسان. وانفذه الى أبى موسى السراج ، والى كبار الدعاة هناك . وكتب له كتابا يعد من أقوى الدعائم فى نجاحه :

« يا عبد الرحمن : انك رجل منا آل البيت فاحفظ وصيتى ، وانظر هذا الحى من اليمن فأكرمهم . وحل بين اظهرهم . فان الله لا يتم هذا الامر الا بهم . وانظر هذا الحى من ربيعة فاتهمهم فى امرهم. وانظر الى هذا الحى من مضر فانهم العدو القريب الدار فاقتل من شككت فى أمره . ومن كان من أمره شبهة . ومن وقع فى نفسك منه شىء . وان استطعت الا تدع بخراسان لسانا عربيا فافعل . وأيما غلام بلغ خمسة أشبار تتهمه فاقتله . ولا تخالف هذا الشيخ ولا تعصه . واذا اشكل عليك امر فاكتف به منى » .

والشيخ هو « سليمان بن كثير » وقد قتله ابو مسلم آخر الامر حين لامسه الشك فيه ، واستطاع أبو مسلم بما أوتى من صفاته الشخصية الممتازة ان يصبح كل شىء فى هذه الدعوة وان يوقع مضر فى ربيعة . ويستفيد هو من خصومتهم ووقيعتهم . وامكن بذلك ان يضرب ملك بنى أمية الضربة القاضية . وان يغير مجرى التاريخ .

وكان « أبو مسلم » على هذه السن الصغيرة ، غاية فى الحزم والهيبة . وقد اعطاه كتاب « ابراهيم الامام » قوة على ان يزيل من طريقه اى شخص . وأن يحقق الغاية التى طبعت عليها نفسه وهى

السيطرة . فقد كان لا يعرف العاطفة ، ولم يكن من الذين يبتسمون أو يلهون. ولم يتورع من القتل على الشبهة ، والغدر بأقرب الناس اليه.

واتيحت له براعة سياسية الى جانب هذه الشخصية المخوفة ، كما عرف كيف ينسق بمهارة معارك الحرب .

ويتبع هذا ما عرف عنه من أنه رجل لا مجال للمرأة فى حياته . فقد غلبت مطامع المجد والظفر بالسلطان على نفسه . وقد بلغ غاية غاياتها . ثم كان المجد سببا فى مصرعه .

وكان هذا القصير الحازم الاسمر ، العريض الجبهة ، الفصيح الطليق البيان ، انتقام القدر لمقتل الحسين من امية . فقوض دعائمها وهدم صرحها .

سأله رجل عن السر فى السواد فقال له : ان الرسول كان يلبسه ، ولم يلبث أن أشار الى السياف بأن يقطع عنقه . وبذلك أقام حوله سياجا من الهيبة والرهبة .

واخرج ابو مسلم الدعوة العباسية من دور الاعداد بعد أن طال بها الوقت دون أن تجد قائدا . واستطاع ببراعته أن يفرق الجموع وأن يزيل من طريق الدولة الجديدة كل الاشواك .

وقيل : انه لما وصل الى خراسان « تشمر للدعوة واخذ القوم بالبيعة . ووجه كل رجل من أصحابه الى ناحية من خراسان . فكانوا يدورون بها كورة كورة . وبلدا بلدا فى زى التجار . فاتبعه عالم من الناس عظيم . فواعدهم لظهوره يوما سماه لهم . وولى على كل من بايعه فى كل كورة رجلا من أهلها . ويقدم اليهم بالاستعداد للخروج فى ذلك اليوم الذى سماه لهم . حتى جاب جميع ارض خراسان وجبالها واقصاها وادناها . وبلغ فى ذلك ما لم يبلغه اصحابه من قبله . واستتب له الامر على جهته وصار من أعظم الناس منزلا من شيعته . حتى كانوا يتحالفون به فلا يمنون ويذكرونه فلا يملون » .

وقد استطاع ابو مسلم ان يحقق ماتوقعه فيه الذين اختاروه ، فقد بلغ الذروة وانتصر ، ولكن ما كاد أن يتم هذا الامر حتى اخذ نجمه فى الافول ، فقد انتقم منه الذين جاء بهم الى الملك كأنما يكره الملوك من يحملهم الى الملك . وقد بدأ ذلك بمرحلة من الدس والوقيعة انتهت بقتل المنصور له .

لقد تحول الموقف النفسى بين أبى مسلم من ناحية والسفاح والمنصور من ناحية أخرى ، بعد أن انتهت المعركة مع خصومهم ، بدأت معهم . لقد أحس هو أن خاتمة الجهد الضخم الذى بذله قد انتهت بالنسبة اليه الى لا شىء ، الا أن يرسل لمحاربة خصوم العباسيين واحدا بعد الآخر ويرسل وراءه من يحصى عليه الغنائم . حتى قال كلمته المعروفة « أمين فى الدماء خائن فى الاموال » . وظل السفاح والمنصور يضربان به خصومهم . ويرسلانه فى معركة وراء معركة علهم يتخلصان منه .

وسافر المنصور الى مقر أبى مسلم ليأخذ منه البيعة لنفسه بعد أن ولى الخلافة ، فضايقه ان وجد لابى مسلم نفوذا ضخما بين جنوده. ورأى الطاعة المطلقة من أتباعه له . ولمس أثره السحرى فى نفوس أصحابه واعجاب الناس فى كل مكان به كبطل حطم دولة . واقام دولة.

وضايق أبا مسلم كانسان ان كلا من السفاح والمنصور كان ينظر الى نفسه انه صاحب الدولة ومقيمها . وانهما لا يعترفان به ولا بحقه من تذليل الملك لهم . اضف الى ذلك أن أبا مسلم كان منتصرا فى معركة ضخمة . وكان فى سن الشباب الباكر . وأنه قد انتهى من المهمة التى كانت تملأ نفسه . فهنا منطقة فراغ . كيف تملأ ؟ لقد ملأها زهو الانتصار . وامتزج بها الحقد على « العباس » الذى كان متواريا هناك، ثم جاء اليوم فأصبح خليفة ، له المكان الاول فى الدولة كلها . أليس هو الذى سهر وكد وجاهد وقاتل حتى أبلغهم هذا المكان .

أضف الى ذلك اشياء اخرى رآها المنصور من كبرياء أبى مسلم وتعاليه عليه ، كل هذا كون حالة من القلق النفسى والترقب والترصد. وكأنما كان يطمع ابو مسلم أن يقتل المنصور . وكان فى خاطر المنصور نفس الرغبة .

وقد انتهى الامر الى غايته التى كان لابد أن ينتهى اليها .

وأفضى المنصور ما فى صدره الى أبى مسلم قبل قتله ، وفيه ذلك الحقد الدفين الذى كان يملأ نفسه : لو أرسلنا أمة لفعلت ما فعلت . تتقدمنى فى موسم الحج . وتكتب بادئا باسمك . وتخطب أختى .

تلك جرائم أبى مسلم .. الذى كان فى الواقع قوة مستقلة بنفسها عن الخلافة ، كان معه الجند . وبذلك كان يخشى أن يحدث اى تغيير. فضلا عن احساسه بأنه هو صاحب الانقلاب .

ويبدو هنا العجب ، فهم الذين جعلوه منهم « آل البيت » ثم سحبوا هذا الاستحقاق بعد أن أتم مهمته .

وفى طريق الموت .. وفى موقفه تنكشف النفوس وتتعرى . وتذهب عنها الصولة وتسقط المهابة . وتبدو الصورة على طبيعتها البشرية العنيفة خالية من زيف المظهر وبريق السلطان . فهذا ابومسلم بين يدى المنصور قاب قوسين أو أدنى من الموت . وعبارات المنصور الملتهبة تلقى عليه . ويحس هو الموت ويراه قريبا منه فتزول عنه كل معالم الجبروت والصولة . وتنمحى كل مظاهر الكبرياء والانفة وتنطوى تلك الصور التى كان فيها « أبو مسلم » طاغية يقتل على الظنة ، وتنحنى له الجباه . ولا يقف أمر دون ارادته الفاتكة . فتراه ذليلا ضارعا . وينجلى من الناحية الاخرى : الغدر والعسف وانتقاص الحقائق الواضحة .

أبو مسلم : لا يقال هذا لى بعد بلائى فى دولتكم وما كان منى ..

المنصور : لو كانت أمة مكانك لجزت ناصيتها · انما عملت ما عملت في دولتنا وبسلطاننا ولو كان ذلك اليك ما قطعت فتيلا ·

أبو مسلم : يا أمير المؤمنين استبقني لعدوك .

المنصور : لا أبقاني الله اذن . واى عدو أعدى لى منك .

وسقط أبو مسلم مضرجا فى دمائه .. وانتهت حياته وهو فى الخامسة والثلاثين من عمره . وانطوت صفحته على هذه الصورة الرهيبة . حياة كلها دماء وحروب وخداع وغدر .

وكم قتل أبو مسلم على الظنة أناسا اتهمهم وشك فى تصرفاتهم وأقدارهم . وكم سهر الليالى يجالد القدر ليقيم دولة . فاذا ما قامت به كان هو وقودها .

ومقطع القول فى هذا أن أبا مسلم استأمن فملأه الغرور بالنصر ولو كان ظل وفيا للذين عمل معهم لمضت الدولة قوية عزيزة ولظل له مكانه ..

※ ما رأيت ما ترون الا بالاقلام فأجهدوا انفسكم فى طلب العلم .

أسد بن الفرات

القاضي الذى قاد أساطيل الفتح . والفقيه العالم الذى تحول الى أمير من أمراء البحر بعد سن الستين . ولد فى نجران ، ثم ذهب مع أبيه الى افريقية . ثم عاد الى المشرق حيث زار الحجاز والعراق ومصر فأمضى بها عشر سنوات . تلقى الفقه على مالك بن انس فى المدينة. ومحمد بن الحسن فى بغداد . وأشهب بن عبد العزيز فى مصر . ألف كتابه « الاسدية فى الفقة المالكى » وقد كان لرحاته هذه أثرها البالغ فى نفسه ومستقبله . فقد احتشد حوله الطلاب فى كل مكان . وكان يقول : « ضربنا فى طلب العلم آباط الابل . واغتربنا فى البلاد . ولقينا العلماء . وغيرنا طلب العلم خلف كانون أبيه . ووراء سياج أمه ويريدون بعد ذلك أن يلحقونا » .

وقد كان له بلاغة وبيان . ولكنه كان بالعام اشهر . فقد كان من الصنف من العلماء الذين يصفر فى أعينهم أهل الدنيا . ولا تملك عليهم سطوة السلطان ألسنتهم فيداهنوهم .

روى انه دخل هو وابو محرز على « المنصور » يوم ثار على «زيادة الله » واستولى على القيروان ، وهما قاضيان فقال لهما : اخرجا عنى . أما تعلمان أن هذا البائس - يعنى « زيادة الله » - ظلم المسلمين ؟ أما أبو محرز فخالطه رعب . وقال له : وانه ظلم اليهود والنصارى. أما أسد بن الفرات فانه مالك جأشه وآثر أن يقول كلمة حق عن أن يسكت أمام صولة باطل . فقال له : كنتم أعوانا له قبل هذا الوقت وانتم وهو على مثل هذه الحال . ولما وسعنا الوقوف عنه وعنكم فذلك يسعنا الوقوف عنه وحده .

وفى عام ٨٢٧ خرج أسد بن الفرات على رأس أسطول متجه صوب صقلية فى تسعمائة فارس وعشرة آلاف رجل من المجاهدين . ورست السفن فى ثغر « مازر » فى طرف الجزيرة الغربى وهو أقرب ثغورها الى افريقيا ، ثم نفذ على رأس جنده الى شرقى الجزيرة لمقاتلة الروم ، فهزم الروم فى معركة كبرى وغنم أسلابهم واستولى على عدة حصون داخل الجزيرة . ثم حاصر سرقوسة من البحر والبر . ووصل الى قلعة الكرات المنيعة فضرب الحصار حولها وبث السرايا . وامتد القتال من سرقوسة شرقى الجزيرة الى بلرم فى شمالها الغربى .

ويروى المؤرخون أن « أسدا » هو الذى عرض نفسه ليخرج مع الجيوش المحاربة فلما وثق « زيادة الله » من صدق عزيمته أذن له

بالخروج على أن يكون أمير الجيش فى هذه الغزوة . وقد أبقى له اسم القضاء فأصبح قاضيا أميرا . وهو ما لم يجتمع لأحد غيره فى افريقية، شأنه فى ذلك شأن يحيى بن أكثم حين كان يخرج بالصائفة الى أرض الروم . ومنذر بن سعيد قاضى الامويين بالاندلس .

وكان أسد قد فتح « قوصرة » وهى جزيرة صغيرة واقعة بين تونس وصقلية .

***

ولقد مضى أسد بن الفرات فى غزو صقلية ، غير أن القدر لم يمهله ليتم رسالته فقد استشهد حين ذاك . وقد رآه بعض المعاصرين له وفى يده اللواء فحملوا عليه فقال للناس مشيرا الى جيش العدو قائلا : هؤلاء عجم الساحل . هؤلاء عبيدكم لا تهابهم . وحمل اللواء وحمل الناس معه فانهزم خصومه . فلما انصرف « أسد » رؤى والدم قد سال مع قناة اللواء على ذراعه حتى صار الدم تحت ابطه . وقد كان على ثقة من انه سيكسر جيش الروم مهما بلغ من الكثرة . وروى انه لما اشتد به الجوع . واضطر هو وجنوده الى أكل لحوم الخيل سعى اليه بعض من طلب منه العودة الى افريقيا فغضب وقال : ما كنت لأكثر غزوة على المسلمين . وفى المسلمين خير كثير . ثم مضى فى عزمته ففتح أكثر البلاد حتى استشهد فى سرقسطة .

وتعطى وقائع حياة أسد بن الفرات صورة رائعة لشخصية هذا القاضى الذى أحب العلم . وشغف به . ففتح له باب المجد . وآمن بالجهاد حتى وهب نفسه له واندفع يطلب الاشتراك فى الحملة المتجهة الى صقلية وهو فى سن الستين فوكل اليه الحاكم قيادة الحملة فأبلى بلاء حسنا ، ومضى يجاهد فى عزم واصرار حتى ذلت له الصعاب . وتأكد له الظفر . واستشهد وهو يحمل العلم والدم يسيل منه لا يبالى حتى لا يسقط اللواء من يده . وقد وصف نفسه عندما ولى امارة الحرب بقوله : « والله يا معشر الناس ما ولى لى اب ولا أحد ولاية قط . وما رأى أحد من سلفى مثل هذا قط ، وما رأيت ما ترون الا بالاقلام فاجهدوا انفسكم واتعبوا أبدانكم فى طلب العلم وتدوينه وكابدوا عليه واصبروا على شدته » .

وقد توفى أسد بن الفرات شهيدا عام ۸۳۲ م ، ثم أتم المسلمون فتح الجزيرة بعد أن وصلتهم امداد من المجاهدين المغامرين . وأسسوا بها امارة كانت تابعة لحكومة افريقية . ولبثت الدولة الاسلامية بها زهاء قرنين وأصبحت معقلا بحريا تخرج منه البعوث والحملات فتجوس خلال المياه الايطالية وتصل حتى روما .

* لقد جئناكم بأرضهم .

النعمان بن مقرن

قال عمر قبل غزوة نهاوند : أشيروا على برجل اوله امر هـذه الحرب وليكن عراقيا ، فأشاروا عليه به . فبات عمر يفكر ويدبر فلما أصبح الصباح قال : اما والله لأولين امرهم رجلا يكون اول الأسنة اذا لقيها غدا : النعمان بن مقرن . قال الناس : هو لها ..

وكتب اليه : بلغنى أن جموعا من الاعاجم كثيرة قد جمعوا لكم بمدينة نهاوند فاذا أتاك كتابى هذا فسر بأمر الله وبعون الله وبنصرالله بمن معك من المسلمين . ولا تؤتهم وعرا فتؤذهم ولا تمنعهم من حقهم فتكفرهم . ولا تدخلنهم غيضة فان رجلا من المسلمين أحب الى من مائة الف دينار . فسر فى وجهك هذا حتى تأتى «ماه» فانى قد كتبت الى أهل الكوفة أن يوافوك بها . فاذا اجتمع اليك جنودك فسر الى « القيروان » ومن جمع معه الاعاجم من أهل فارس وغيرهم .

***

وكان « النعمان بن مقرن » من الذين استجابوا للدعوة الاسلامية عندما بزغ فجرها . واشترك فى الوقائع كلها مع رسول الله . فلما ارتدت العرب بعد ان لحق الرسول بالرفيق الأعلى كان فى مقدمة الفرسان الشجعان الذين حملوا اللواء للدفاع عن الاسلام والذود عنه.

وقد عرف بأنه فارس مقدام لا يعرف التردد ولا الفرار غير متسرع الا لفرصة . كان على ميمنة أبى بكر حين خرج لقتال الذين منعوا الزكاة، فهزمهم بذى القصة . وكان الى جوار خالد فى غزواته .

ولما ولى سعد القيادة كان فى المقدمة . برز فى القادسية وفى فتح العراق العربى . وأبلى فى حروب خوزستان .

وولاه سعد جباية الخراج . وهو يحب الجهاد فكتب الى عمر يطلب منه أن يدفع به فى نحر العدو ، فلم يلبث عمر أن كتب الى سعد يقول :

ان النعمان كتب الى يذكر انك استعملته على جباية الخراج . وانه قد كره ذلك ورغب فى الجهاد فابعث به الى اهم وجوهك .

***

وكان « النعمان » من بين أعضاء وفد سعد الى « يزدجرد »

يطلبون اليه الاسلام أو الجزية أو المناجزة . فقد كان من أهل الراى والسياسة والشجاعة . ويروى أنه هو الذى رد على يزدجرد ، حين قال :

ما الذى أقدمكم على هذه البلاد . أتراكم جرأتم علينا لما تشاغلنا بأنفسنا .

فوقف يدافع عن الاسلام فى لسان بليغ . وعبارة أخاذة . قال :

« ان الله رحمنا فأرسل الينا رسولا يدلنا على الخير . ويأمرنا به ويعرفنا بالشر وينهانا عنه . ووعدنا على اجابته خير الدنيا والآخرة . فلم يدع الى ذلك قبيلة الا صارت فرقتين . فرقة تقاربه وأخرى تباعده ، ولا يدخل معه فى دينه الا الخواص . فمكث بذلك ما شاء الله أن يمكث . ثم أمر أن ينبذ الى من خالفه من العرب وبدأ بهم وفعل . فدخلوا معه جميعا . ثم امرنا أن نبدأ بمن يلينا من الامم فندعوهم الى الانصاف فنحن ندعوهم الى ديننا . وهو دين حسن الحسن وقبح القبيح . فان أبيتم فأمر من الشر أهون من آخر شر منه ، الجزية . فان أبيتم فالمناجزة . فان اجبتم الى ديننا خلفنا فيكم كتاب الله واقمناكم عليه على أن تحكموا بأحكامه ونرجع عنكم . وشأنكم وبلادكم . وان أتيتم بالجزية قبلنا ومنعناكم . والا قاتلناكم » .

ومضى كسرى يناقشه فى أنفة . وهو يجيب عليه فى صرامة وقوة . حتى قال له : ارجعوا الى صاحبكم فأخبروه أنى مرسل له « رستم » حتى يدفنه ويدفنكم فى خندق القادسية . ولم يدعهم حتى حملهم التراب . ففرح به النعمان وذهب الى «سعد» فرحا يقول : لقد جئناكم بأرضهم .

ولما تلاقي الفريقان واحتدم القتال تحقق النصر للمسلمين وتحطمت مقاومة الفرس واندحروا وفروا .

ثم ولي « النعمان » ولاية «كسكر» فضاق بها . وكتب الى الخليفة يطلب اليه أن يقذف به فى حومة القتال فما هو وهذه الولاية . لقد كره الاقامة وضجر من الطمأنينة . وأحب أن يندفع فى ميدان الحروب يكابد الاهوال ويجالد الرجال .

واعتزم « يزدجرد » أن يثأر للقادسية فجمع قواه ، وتأهب لمعركة فاصلة . وكاد عمر أن يخرج من المدينة ليقف بنفسه فى وجه الفرس . ثم رأى أن يختار رجلا يستطيع أن يواجه هذا الخطر فكان « النعمان » على نحو ماوصفنا فى أول الفصل .

وسار النعمان على تعبئة حتى نزل قريبا من حصون أعدائه . وكبر المسلمون ثلاث تكبيرات زلزلت الاعاجم فى ثلاثين الفا يقابلهم خمسون ومائة ألف متحصنين فى بروج ذات منعة .

وهاجمهم القعقاع ورمى المدينة بالنبال واظهر العزم على اقتحام الاسوار . وثبت لهم القعقاع حينا ثم اظهر الفرار وولى بجنده مدبرا فخرجوا فى أثره . وتابع القعقاع فراره . وتابع الفرس مطاردته . وخلت

نهاوند من حماتها ولم يبق بها الا حراس ابوابها ، فلما بعدوا عن المدينة. ولم يبق لهم مطمع فى حماية حصونها ، فوجئوا وقد وقف المسلمون وثبتوا للقتال .

ولما حان للشمس أن تنحدر نحو المغيب ركب «النعمان» وجعل يمر على الرايات يشجع الناس ويحرضهم . ودعاهم أن يستعدوا فاذا كبر ثلاثا حملوا معه وقال فيما قال : « فاذا كبرت الثالثة فانى حامل ان شاء الله فاحملوا معى . اللهم أعز دينك وانصر عبادك . واجعل النعمان أول شهيد اليوم على اعزاز دينك ونصر عبادك » .

وكان معلما فى وسط الجيش ببياض القباء والقلنسوة فلما كبر ثلاثا اندفع وفى يده اللواء فانقض على العدو انقضاض العقاب واخذ يطيح بالرءوس ويجندل الفرسان . وشد المسلمون حوله . ومضوا يقاتلون الفرس حتى تصافحوا بالسيوف . وقد سقط من جنود الاعداء عدد ضخم حتى كادت الارض تميد بالدماء ، وبينما هو يشق طريقه ذلق جواده فى الدماء فصرعه واستجيب دعاؤه واستشهد .

ولكن المسلمين واصلوا الحرب . وحمل القعقاع اللواء وقتل الفيرزان قائد الفرس واخفى خبر مقتل النعمان عن المسلمين فاندفعوا فى النصر حتى غايته .

وهكذا حقق النعمان أمنيته ومات شهيدا فى حومة الوغى . بعد ان امضى حياته مجاهدا فى سبيل نصرة الحق .

وهو فى جماع صور حياته رمز لهذه الشخصية الاسلامية التى قدمت نفسها فداء لفكرة وهدف وغاية .

ولقد كان من ذلك النوع المكيث الذى لا يسرع الى الحرب حتى يثق من موقفه فضلا عن فهمه للروح العسكرية وتشبعه بها . وكان الى ذلك شجاعا مقداما لا يهاب شيئا فيه عزمة وفيه فداء وفيه ايمان بالشهادة والموت فى سبيل الله ، لا يبالى على اى جنب كان فى الله مصرعه .

وكان بعد نظره ، وسرعة خاطره ، وبراعة تدبيره من العوامل البعيدة الاثر في بروزه وعلو قدره .

الرجل الذى نقل أسطولا بحريا فوق التلال والهضاب لأول مرة فى تاريخ الحرب .

محمد الفاتح

علم من أعلام الفتح استطاع أن يكتب اسمه بحروف من نور ويسجل فخرا للاسلام عجز عنه المسلمون . وطمعوا فيه . ورغبوا اليه . منذ منتصف القرن الاول عندما أعد « معاوية » الشواتى والصوائف لحصار القسطنطينية من البر والبحر . ثم عادت مرات ومرات خلال سنوات متوالية دون أن تنال شرف هذا الفتح الذى حققه محمد بعد ذلك بتسع قرون .

ومحمد الفاتح شاب استقبل حياته بأمل ضخم ورغبة ملأت عليه نفسه هى « فتح القسطنطينية » ، وهو أمر لم يكن يتخيله متخيل لانه أقرب الى المستحيلات . ولكن محمدا أحال هذا الخيال المستحيل الى حقيقة نافذة . وفى هذا الحادث وحده نجد شخصية الرجل المغامر الطموح .

لقد كانت « القسطنطينية » رمز الحضارة الاوربية . وملاذ الديانة المسيحية . وكان الاستيلاء عليها عنوانا على تحول ، ورمزا على انقلاب . فمنذ وقعت القسطنطينية فى قبضة الاتراك بدات صفحة جديدة من صفحات التاريخ فى الشرق والغرب . وكان محمد هو كلمتها الاولى .

وهو عند كثير من الباحثين من أعظم صناع التاريخ . وقد عرف محمد الفاتح منذ شبابه بحبه للتفوق وميله للسيطرة والطموح وحسن معالجة الامور . وكان الاسكندر المقدونى هو الشخصية الاولى فى تقديره . ولعل توليه الملك فى سن الحادية والعشرين . ومباشرتهالحكم فى حياة أبيه مما جعله أكثر خبرة للامور وتجربة للرجال .

وقد ورث « محمد » عن أبيه الجلد والشجاعة وشدة المراس ولصبر على المكاره وشغف منذ صباه بأمور الحرب ، ووضع الخطط الحربية وحصار المدن .

وقد اتاحت له هذه الوراثة مزيدا من كمال الشخصية . فقد كان ابوه من سلالة آل عثمان . وكانت امه مسيحية فكأنما امتزج الشرق بالغرب فى كيانه . ولذلك لم يكن متعصبا أو ضيق الافق . وعزفمحمد عن الترف . واحب الخشونة فى طعامه وملبسه وأخذ نفسه بالعظيم من الامر . فلم تكن له محظيات . ولم يكن يألف مجلس الندماء . وكانت

العزلة والوحدة حبيبة الى نفسه فطهرت روحه من عوامل الاختلاط التى عرفتها قصور الملوك والخلفاء .

ووصف بأنه قمحى اللون متوسط الطول ، متين العضلات ، فارسا ، طموحا ، سريع البديهة . تعلم عدة لغات أجنبية . وحرص على قراءة سير العظماء والابطال وخاصة القياصرة .

ولذلك فانه ما كاد يبدأ فى حملة القسطنطينية حتى أحكم الخطة . ودرس مختلف الاحتمالات . ثم كتم اسراره حتى بدأ التنفيذ فى قوة واحكام .

وكانت الحرب مدى شغفه ، حتى كان يسرع الى التعرف لكل جديد فى اساليبها واختراعاتها . وكأنما كانت فكرة افتتاح القسطنطينية تملأ عليه حياته فعاش يحلم بها ويفكر فيها ويرسم لها الخطط .

ولعل ابرع ما فى خطته كلها نقل البواخر الحربية الضخمة من بحر الى بحر . ومن بوغاز الى بوغاز وفق اسلوب لم يعرف من قبل فى الحرب . حتى لقد فاجأ العدو أعنف المفاجأة . فأعجزه عن مقاومة خطة جريئة عجيبة لم يكن مستعدا لها أو يحسب حسابها .

***

ولى الخلافة فى فبراير ١٤٥١ وهو ابن السلطان مراد . وقد روى انه عندما علم بخبر موت أبيه ، امتطى جواده وقطع به مائة وعشرين ميلا فى فيافى آسيا الوسطى حتى بلغ الدردنيل ثم عبر الى غاليبولى .

وقد بدأ يحقق فكرته بأن بنى قلعة فى منطقة « روميلى حصار » بعد ان عبر المضيق الى الشاطىء الغربى . وفى ليلة واحدة نقل عشرة آلاف رجل من عماله وصناعه ليقيموا هذه القلعة . وارسل رسله فى شتى أنحاء مملكته يدعون كل راشد الى حمل السلاح . وجمع وزراءه واعوانه واعلنهم بعزمه على غزو « بيزنطة » والاستيلاء عليها .

وكان قد درس قلاع القسطنطينية واسوارها المنيعة الضخمة . ومنها سورها الغربى الذى يبلغ طوله خمسة اميال من الحجر الصلد من فوقها قلاع ضخمة تقوم فى صفين او ثلاثة صفوف وهى التى شيدها الاباطرة والمتعاقبون صونا لعاصمتهم ورمزا لسطوتهم وبه استطاعت ان ترد ما تعاقب عليها من غارات القبائل المتبربرة .

وفكر محمد الفاتح فى ان يعد سلاحاجديدا للحرب . فصنعمدفعا يقذف اكبر قذيفة الى أطول مدى . وقد استطاع صنع هذه المدافع الضخمة التى أطلق عليها « قذائف الصخور » بعد أن نقل الكتل الضخمة من الحديد والنحاس من مصانعها فى آسيا الصغرى الى حيث تقوم أمام أسوار القسطنطينية .

وأمضى الآلاف من الناس الايام والاسابيع والشهور المتعاقبة فى تعبيد الطريق الى المدينة وفى صنع العربات التى تحمل المدافع ، حشد

لجرها خمسين من الثيران القوية وقد نقلت فى شهور طويلة فى تسلق الهضاب والتلال والهبوط الى الوديان الى أسوار القسطنطينية التى شهدت ثلاثين فماً من الحديد تتجه اليها ومضت المدافع تقذف الاسوار فتثير الغبار ثم تتركها وقد فتحت فجوات بها وامتد الحصـــار .. وأرسلت أوربا ثلاث سفن كبيرة لتدافع مع أهل القسطنطينية عن مدينتهم . هنالك بدأ أسطول محمد الفاتح المؤلف من مائة وخمسين سفينة صغيرة يقذف قطع الحديد وكرات النار على المراكب الداخلة الى الخليج .

ولـكن محمدا الفـــاتح رأى أن ذلك كله لا يجـدى فى دفـع غارات المغيرين ولا فى كسب النصر الحاسم . لذلك فكر فى هذه الخطة العجيبة التى أذهلت خصومه وأدهشت المؤرخين على مر العصور ، فقد رأى أن ينقل أسطوله الواقف فى البحر فوق اليابسة وينزله فى الطرف الثانى من القرن الذهبى .

ولاول مرة ينقل أسطول بحرى فوق التـــلال والهضاب ، فجىء بكتل ضخمة من الخشب ونشرت الواحا صنعت منها صناديق . ووضع فى كل منها سفينة من سفن الاسطول . وجىء بألوف العـــمال الذين اخذوا يعبـــدون الطريق الجبلى المؤدى الى القرن الذهبى مختـــرقا التلال . وهو فى نفس الوقت يغطى خطته بموالاة مدافعه ضرب أسوار القسطنطينية حتى يباغت العدو بالعمل الخطير .

فاذا كان الصباح نقل الاسطول البحرى وانزل الى ميـــاه القرن الذهبى وفوجىء العدو بمشـــاهدة أسطول محمد الفـــاتح وهو يدق الطبول .

وظل الحصار مضروبا على المدينة ستة أسابيع .

وفى ليلة ٢٩ مايو ١٤٥٣ قرر محمد الفـــاتح مع رجاله مهاجمة المدينة ، واندفع الجنود الى ثغرة فى الاسوار فنفذوا منها الى المدينة ، ولم تلبث أن سقطت القسطنطينية بين أيديهم . وســـقط الامبراطور قسطنطين تحت الاقدام .

ولما دخل محمد الفاتح المدينة اتجه الى كنيسة ايا صوفيا . وقبل أن يدخل بابها سجد لله شكرا ثم حمل حفنة من ترابها ووضـعها على رأسه . فلما أتم صلاته ودعاءه نهض ودخل الكنيسة وأحالها مسجدا وجمع فيها رجاله فصلوا صلاة الفتح .

تم الـكتاب

الفهرست



مطابع الدار القومية

١٥٧ شارع عبيد - روض الفرج

تليفون ٤٠٧٥٣ - ٤١٠١٢
٤٠٥٨٨ - ٤٠٨١٤